COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY

UAR. 6200. al-Judayti,

من هدي الإسلام ٢

# دراسات إسلامية

في حِكَم التشريع وأسرار التنزيل وجلائل
العقائد وذخائر التاريخ وروائع العظات

بقلم
محمد عبد الرحمن البجديلي

منشورات المكتب التجاري - بيروت

من هدي الإسلام

٢

# دراسات إسلامية

في حِكَم التشريع وأسرار التنزيل وجلائل
العقائد وذخائر التاريخ وروائع العظات


بقلم

محمد عبد الرحمن الجديلي

المدير العام السابق للشئون الدينية
برياسة مجلس الوزراء بالجمهورية العربية المتحدة


أمحمد أشرق بنور محمد
فالشمس من هذا البيان شعاع

« الصادي شملان »


سبق أن قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذه الدراسات
لطلبة المعاهد الثانوية بمدارس الجمهورية العربية المتحدة.

BP
165.7
.J8
v.2

الطبعة الاولى

كانون الثاني ( يناير ) ١٩٦٤

## كتب قيّمة

في التعريف بهذه المحاضرات والدراسات

بقلم أئمة الدين وكبار المفكرين

## كتاب كريم

للمصلح الديني الكبير الأستاذ الأكبر المرحوم

**-الشيخ محمد مصطفى المراغي**

حضرة الأستاذ الجديلي ،

سمعت بعض محاضراتك في « المذياع » وقرأت بعض ما بعثت به إلي فرأيت من الواجب أن أُشعرك بما تستحقه هذه المحاضرات من الإعجاب والثناء ، وبما تستحقه أنت من الشكر والإطراء ، وقد أحسنتَ في تخيّر الموضوعات ، وأجدت في تهذيب الأسلوب ، وتجويد العبـــارات . فخدمت دينك وأمتك ، وأرضيت ربك ورسولك ، أسأل الله أن يتولى جزاءك ويديم لك التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

شيخ الجامع الأزهر

**محمد مصطفى المراغي**

## خطاب بارع

بقلم الوزير العالم المرحوم

**عبد العزيز محمد (باشا)**

وزير الأوقاف الأسبق

الى الاستاذ العبقري النابه عبد الرحمن الجديلي — زاده الله علماً ،

أحييك تحية المعجب بك ، العارف لفضلك وأدبك ، المستفيد من علمك . وبعد ؛ فإذا كان من حق الاحسان أن يقابَل بالاحسان ، ومن مقتضى الاتقان أن لا يبقى في طي الكتمان ، وأن يشاد بهما للحضّ على الاستزادة منهما ، والمثابرة عليهما — فإنك لعمرُ الحق في عملك من أفضل من أحسنوا وأتقنوا ، وأجادوا وتفننوا ، تبينتُ ذلك يقيناً ، عندما أتيحت لي أثناء ولايتي لوزارة الأوقاف فرصة استماعي لمحاضراتك القيمة البليغة حينما كنت تتلوها عليّ قبل إلقائها الى «المذياع» الذي هو من أعجب مخترعات هذا العصر ، لإبلاغها مسامع الدهماء في جميع الأرجاء ، التي بلغتها دعوته ، وانتهت اليها رحلته .

كنت حينما أصغي اليها — وكلي آذان تصغي — لا يخلص الى سمعي ولا الى قلبي شيء مما عداها ، فكانت تملك عليّ جميع مشاعري ، وتستأثر بنوافذ فطنتي فتتسابق الى وجداني منها المعاني الرشيقة في زخرف الألفاظ العذبة ، والأساليب البارعة ، فتهيج شجوني ، وتفيض شؤوني ، وتثير ذكريات مجد غابر ، وعز داثر .

لقد ملكتَ أيها الأديب قياد الفصاحة وأنت ربيبها ، وامتطيت صهوة

البلاغة وأنت غذيُّها ؛ فأتيت في محاضراتك الشيِّقة من بدائع القول وروائع البيان ، في شرح أسرار التنزيل ووصف آثار بعثة الرسول الأكرم (صلوات الله عليه) في العالم ، وأحوال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، وكرائم أخلاقهم وجلائل مآثرهم ومفاخرهم ، وما حفظه لهم التاريخ من أعمالهم المجيدة ، وآثارهم الخالدة — أتيت في شرح ذلك كله ووصفه بما دل على غزارة علمك ، وثقوب فهمك ، ودقة فقهك ، ونور بصيرتك .

فلله أنت ولله صنيعك ، فقد أهديت أحسن العبر للمعتبرين ، وقدمت أكمل المُثل العليا للمحتذين ، وان فيها لموعظة وذكرى «لمن كان له قلب أو ألقى السمْع وهو شهيد» .

ولقد كان في عزمي كما علمتَ لو طالت مدتي في الوزارة ، أن أقرر طبع هذه المحاضرات النفيسة ونشرها للناس كتاباً يقرأ على مر الأيام لما احتوته من الفوائد الجمة ، وأن تترجم الى بعض اللغات الاجنبية لتعريف غير المسلمين حقيقة الإسلام ومحاسنه وآثاره الفضلى في تهذيب النفوس ، وتطهير الأخلاق ، فإنهم منها في أمر مريج — كنت معتزماً ذلك ، وأن أكافئك على ما بذلتَ من جهد في نسج بردها على هذا النمط الحسن ، وتنسيق موضوعاتها بهذا الشكل البديع ، حتى أتت معجزة في البلاغة والأدب .

ولئن فاتني ما كنتُ قد قصدت اليه بالتخلي عن الوزارة فأرجو ألا يفوت ذلك حضرة صاحب المعالي وزيرها الحاضر فإنه خير من يعرف للعاملين أقدارهم .

ولن يفوتني أن أسدي لك عظيم شكري على ما أبديت من فرط غيرتك على دينك ، وما أديت من واجب النصح لإيقاظ قومك ، والله سبحانه من وراء ذلك يجزل لك مثوبة العاملين المخلصين ، انه ولي الاحسان ، وهو الغفور الشكور ...

والسلام عليكم ورحمة الله .

من محبك

**عبد العزيز محمد**

## كتاب عزيز

لفضيلة الأستاذ العلامة المرحوم

**الشيخ عبد المجيد اللبان**

شيخ كلية أصول الدين – سابقاً –

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الأستاذ المحترم عبد الرحمن الجديلي . حيّاه الله وحباه .

أما بعد ، فإني أوليك تحية من يحترم فضلك وأدبك ، ويجل مواهبك ويقدر عملك . وإن من خير ما صنعت تلك المواعظ الحسنة التي نشرها على العالم مذياع إرشادك ، ودعوتك الحكيمة في محاضرات قيمة ، سمعتها الآذان فأصغت إليها ووعتها النفوس فطهرت بها ، وتذكرتها الألباب فصفت وأخلصت. لقد قرأتها فكنت حين سرّحت الطرف في نواحيها ، كمن جاب روضاً يانعاً بهج المنظر ، اذا سرّه زوج من أزهاره أغراه منها زوج آخر .

أعجبني ما شرحت من عقيدة إسلامية حنيفية ، وسيرة شريفة نبوية ، وزاد في اغتباطي ما ضممته الى ذلك من قيّم المبادىء في شتى المواضيع ، خلقية واجتماعية ، بأسلوب جزل سهل يسّر للناس فهمها ، سواء منهم من رقي الى رتبة أهل العلم ومن نزل عنها .

فأصارحك أيها الأستاذ بأنك قد سلكت في هدايتك طريق المصلحين ،

وتأسيت بما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » فكنت حكيما في صنعك ، بثثت روح التربية الصحيحة في النفوس ، وأشربتها حب الخير ، وعودتها عمل التقوى وإسداء المعروف ، عسى أن تسعد بها أمة تطلب منك المثابرة في هذا العمل المبرور حتى تؤدي رسالتك تامة فترضي ربك وتقرّ عين نبيك . وختاماً ندعو الله لك بخير ما يرجوه لولده البار ، الوالد الشفيق .

شيخ كلية أصول الدين

**عبدالمجيد اللبان**

## كلمة بنت الشاطىء

نشرت في جريدة « الاهرام » الغراء

أذاع هذه المحاضرات حضرة الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي من محطة الاذاعة اللاسلكية مندوباً عن وزارة الأوقاف ، فلقيت من الإعجاب وحسن التقدير ، ما دعا الى الاهتمام بطبعها ، نشراً للثقافة الدينية ، وتمكيناً من زيادة الانتفاع بهذه الدراسات القيمة ، في حكم التشريع ، وأسرار التنزيل وجلائل العقائد ، وكرائم السير وذخائر التاريخ وروائع العظات .

وليس الأستاذ الجديلي في حاجة الى من يقدمه الى القراء، فقد قدمته من قبل أبحاثه الرائعةالتي أذاعها على القراء في الصحف العربية، وامتازت بجمال الأسلوب وحرارته وامتلائه ، ودلت على ثروة الأستاذ الثقافية وعلى روح البحث العلمي العميق . وقدمته أيضاً محاضراته التي أذاعها ، فكان لها صدى طيب من فرط الإعجاب وحسن التقدير .

كتب عنها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي :« سمعت بعض محاضراتك في المذياع ، فرأيت من الواجب أن أشعرك بما تستحقه أنت من الشكر والإطراء، وقد أحسنت في تخير الموضوعات وأجدت في تهذيب الأسلوب وتجويد العبارات فخدمت دينك وأمتك وأرضيت ربك ورسولك » .

وأسلوب المحاضرات أسلوب بليغ سهل ، ولكن في امتلاء ؛ وهو يميل الى الاختصار حيث قد حدد لكل محاضرة جزءاً من الوقت لا تعدوه ولا تقصر

عنه ، على أن هذا الإيجاز أبلغ في العظة ، وأبعد عن الإملال ، وأدعى الى الإصغاء والانتباه .

وللأستاذ الجديلي طريقة في الوعظ، فهو لا يهجم بمواعظه ولا يلح على النفس بسرد نصائحه ، علماً منه بأن النفس الانسانية كثيراً ما تضيق بالوعظ وتتبرم بالنصيحة ، وهو لذلك يسلك اليها سبيلاً هيناً ، ويدخل نصائحه اليها خلسة حتى لا تمل ولا تتبرم .

ففي حديثه عن ( الرجل المؤمن ) مثلاً يخفي شخصية الواعظ في شخصية رجل مؤمن صادق الإيمان، معتز به، يحاوره فتى ضيق التفكير رقيق الإيمان؛ ويجد المستمعون قلوبهم مبهورة تتتبع المحاورة في شوق ولهفة، وتستقبل الموعظة وهي لا تكاد تدري .

ومحاضرات الاستاذ الجديلي عن أبطال الاسلام منهج للثقافة الاسلامية الضرورية ، فإن الكثيرين لا يعرفون ما لا بد من معرفته عن الدعوة الاسلامية وأطوارها وأبطالها .

ونحن نرجو أن يجد الاستاذ الجديلي من حسن تقدير القراء بعض المكافأة على جهوده المشكورة الموفقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

## فاتحة وتعريف

نحْمَدُك اللهم ، لكَ الخَلق والأمر ، ونستَخيرُك بيدِك الخير ، ونستلهمك الرشد والتوفيق ، ونستكفيك عوادي الأيام ؛ ونرغبُ اليك أن تصلي وتسلم على سيدنا ومولانا « محمد » صاحب الشريعة السْمحة ، والقول الفصل ، والخلق العظيم ؛ اللهم أدّبنا بأدبه المحفوف بالعصمة ، وثقّفنا بكلماتِه الجوامع في حديثه الشريف : — « مَن أحبّ أن يكون أعزّ الناسِ فليتقِ الله ، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكلْ على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكنْ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يده [1] » .

( وبعد ) فهذه فصول في التشريع ، والأصول ، والفقه ، والتاريخ ، والسيَر ، والتراجم ، والعظات ، أذعتها تارة مندوباً عن وزارة الأوقاف وتارة تلبية للمستمعين ومساهمة في الخير العام . وقد جعل لها ذوو الشأن في الإذاعة جزءاً مقسوماً من الوقت لا تعدوه ولا تقصُر عنه ، فجاءتْ من الإيجاز في القالَب الذي صُنع لها ... لا كما ينبغي أن تكون من البسط والاستقصاء ... على أن النفوس في هذا الباب الى القصار أميل ، وبالموجَز أشغف ، ولعلها تكون على القلوب أندى . وجعلت نُصب عينيّ أن أستثير

---

١ — رواه محمد بن كعب عن ابن عباس رضي الله عنهما .

شوق المستمعين ، وأن أبْلُغ نوازع الخير فيهم . وقد أكون – بعون الله – قاربت المحَزّ ، ثم أدع بعد هذا لمن شاء أن يَكشِف عن كنوز الشريعة التي أشرتُ اليها ، وأن يستخرج ذخائر التراث الإسلامي الذي طفتُ حوله .

هذا – واستقيل الله هفواتي ، « انه أهل التقوى وأهل المغفرة » .

**محمد عبد الرحمن الجديلي**
المدير العام للشئون الدينية
برياسة مجلس الوزاء سابقاً

# جوامعُ الكَلِم النَّبَوِيَّة

## (البيان الخالد)

خطب رسول الله صلى الله عليه وَسلَّم أصحابه ، فقال :

أيُّهَا الناسُ . إنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فانتهُوا إلى مَعَالِمِكُمْ . وإنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فانْتهُوا إلى نِهَايَتِكُمْ ، فانَّ العَبْدَ بين مَخَافَتَين . أجلٌ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللهُ فاعلٌ فيه ، وأجلٌ بَاقٍ لا يَدْرِي ما اللهُ قاضٍ فيه . فَلْيَأْخذِ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، ومِنْ دُنياه لآخرتِهِ ، ومن الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الكِبَر ، ومن الحياةِ قبلَ المماتِ . فوَالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ما بعدَ الموتِ من مُستَعْتَبٍ ، ولا بَعْدَ الدُّنيا دارٌ إلا الجنة أو النار .

هذه جوامع الكلم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمعت حقائق الحياة . ووصفتْ طريقَ النجاة . وعلَّمت الانسانَ المؤمنَ أن يكون دائماً حذراً يقظاً ، يعدُّ لكل أمر عدَّته . يقول — عليه السلام — :

(إنَّ لكُمْ مَعالِمَ) المعالم جمع مَعْلَم . والمَعْلَم — الأثر والعلامةُ التي

يستدل بها على الطريق ، ويقال فلان مَعْلَم للخير : دالٌّ على الخير . وهذه المعالم بينها لنا الله على لسان نبيه ، وجعلها علامات على الخير ،وأوصافاً للشر . ثم حدَّد الشريعةَ تحديداً ، وعرَّف أحكامها تعريفاً ، وميَّز الحلالَ من الحرام ، وفرَّق بينَ الحقِّ والباطل . فالرجل المؤمن الحكيم يقف عندالحدود لا يتجاوزها ،وينتهي عند المعالم فلا يُهلِكُ نفسَه باقتحامها . ( ومَنْ يتعدَّ حدود الله فقدْ ظلَم نفسَه ) .

يقول صلى الله عليه وسلم : ( وإنّ لكُم نهايةً فانتهُوا الى نهايتكم ) النهايةُ غاية الشيء وآخرُه – ونهاية الخَلْق ومصيرُ كلِّ حيٍّ الى الفناء ، (وإنَّ الى رَبِّكَ المُنتَهى) . (كل شيء هالكٌ إلا وجهه له الحُكم واليه تُرجَعون) . فالانسان منتهٍ لا محالة !! رضي أم كره ؛ عُمِّر أم اختُرِم ! فكيف يأمره الحديث بأن ينتهيَ الى نهايته ؟ نعم .. يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينتهي الى نهايةٍ جديرة وحريّةٍ بأن تُسمَّى نهاية ، وهي التي يُقدِّمُ لها في حياته ودنياه الخيرَ ما استطاع ، فاذا نَشَر المعروف ، وبذل الاحسان ، وعاش أليفاً مألوفاً ، راضياً مرضياً ، يكُفُّ الأذى ، ويمنع الشر ، ثم انقضت مدته ، وحانت منيّته ، كان منتهياً الى نهايته الحميدة . نهايةٌ لها عُقباها ، وعند الله بشراها . (ومَنْ كان يَرْجُو لقاءَ ربِّه فليعملْ عَملاً صالحاً ، ولا يُشْرِكْ بعبادة ربه أحدا) .

أمّا أولئك المسرفون على أنفسهم – هؤلاء الذين يُحبون العاجلةَ ، ويَذرُون وراءَهم يوماً ثقيلاً ، هؤلاء ينتهون ، ويعبرون الحياةَ كلَمح البَصر ، ولكنهم في الواقع ليست لهم نهاية حريّةٌ بأنْ تُسمَّى نهاية (يَومَ يَنظُرُ المرءُ ما قدّمتْ يَداه ويقولُ الكافرُ – بالحق وبالخير وبالفضيلة – يا ليْتَني كنتُ تُراباً) . بعد أن رأى هذا المصير ، وهذه النهاية ....

وان شأن المؤمن اليَقظِ الحذَر الخائف الوَجِلِ ، أن يتدبّر أمرَه ، وهو في فُسحةٍ من العُمُر ، وسَعةٍ من العيش ، فيعرض ماضيَه ومستقبلَه – يعرض ما مضى من عمره ، وما بقي من أجَلِه ، ثم لا ينقطع عن العمل ، ولا يأمن

الغوائل ، فانه لا يدري .. هل ما قدّمه من طاعة وعبادة ، وبر واحسان ، وخير معروف ، قد قبله الله ، وكتبه له في صحف الأبرار ؟ أمْ أنّ عمله الماضي قد حَبِط بالرياء ، وبطل بالنفاق ( وقَدِمْنَا الى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فجعلناهُ هَباءً منثوراً ). ( أولئك الذين حَبِطتْ أعمالُهم في الدُّنيا والآخرة. وما لَهُمْ من ناصِرين ) ...

وهل الباقي له من العمر سينقضي في الأعمال النافعة ، والآثار الخيّرة ؟؟ أم سيجانبه فيه التوفيق والسداد ؟؟ كِلا الأمرين من أسرار الغيب ، مجهولٌ مخوفٌ مرهوب . فرسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا ان لا ننخدع بأعمالنا ، وان لا نطمئن إلى غِيَرِ الأيام ، وتقلبات الأحداث، وأن لا نركن الى عمل مضى من أعمالنا. فليست العبرةُ إلا بالخواتيم. يُعلّمنا – عليه السلام – أن نستزيد دائماً من الخير والبر والمعروف ، وأن نستكثر من الأعمال النافعة زمنَ الصحة ، وان ندّخر الإحسانَ والخيرَ زمنَ السَّعة ، وان نتابع الجد والدأب والعمل النافع زمنَ الشباب ، وان ننتهز القدرةَ على الاعمال ، قبل حلول الآجال . فلرُبَّما انقلب الصحيح سقيما ، وصار الغنيّ فقيرا ، وأصبح العامل عاطلاً . ولا مفر من أن تذهب بشاشةُ الصِّبا ، وقوة الشباب ، فيعتاضَ المرء منها وْهناً وضعفاً ( وَمنْ نُعَمِّره نُنكِّسه في الخلق ).

وربما فاجأ الموتُ الانسانَ على غير استعداد ولا ترقب ولا توقع ، وهنا الكارثة العظمى ، فانه ليس بعد الموت من مستعتب للآثمين المسرفين ، ليس هناكَ عُتب ، ولا يُقبل إعتابٌ من مستعتب ! لقد انتهت حياةُ الملام والاعتذار ، والعِتاب والإعتاب، الذي كان يزيل الشكوى، ويكشف البلوى، ذهب هذا كله مع ذهاب الحياة الدنيا دار التكليف .

أما بعد الموت ، فلا شيء الا الحسابُ والجزاء : (يومَ تَجِدُ كلّ نفسٍ ما

عَمِلتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وما عَمِلتْ مِنْ سوءٍ تَوَدّ لو أنَّ بيْنَها وبينهُ أمداً بعيداً ، ويحذِّركم اللهُ نفسَهُ واللهُ رؤوفٌ بالعباد) .

إنه بعدَ الموت ، لا يَعدو الأمر شيئين : إما شقاءٌ وتعاسةٌ وآلام ، وإما سعادةٌ ونعيم وسلام .

## خطبة جامعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

●

خطب رسول الله ﷺ أصحابه في ( تبوك ) فقال :

« أَمَّا بَعْدُ ، فإنَّ أَصْـدَقَ الحَديثِ كتابُ اللهِ ، وأَوثقَ العُرىٰ كَلِمَةُ التقوى ، وَخَيْرَ الملل مِلَّةُ ابراهيم[1] ، وخَيْرَ السُّنَن سُنة (محمد) ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَأَشرفَ الحديث ذكرُ الله ، وأحسنَ القَصَصِ هذا القرآن[2] ، وخيرَ الأمور عَوازِمُها[3] ، وَشَرَّ الأمور مُحْدَثاتُها[4] ، وأشرفَ الموتِ موتُ الشهداء[5] ، وأعمىٰ العَمىٰ الضَّلالَةُ بعـدَ الهُدى[6] ، واليدُ العُليا خيرٌ من اليد السفلى[7] ، وَمَا قَلَّ وَكَفى خيرٌ

---

(١) يقول القرآن الكريم : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينـاً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

(٢) يقول القرآن الكريم : ( لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ) .

(٣) العوازم : القواطع وهي الأمور التي لا يتردد فيها الانسان .

(٤) المحدثات : الأمور التي لا تستند الى أصل شرعي ، ولا الى هدي ديني .

(٥) لأنهم يرخصون أنفسهم في سبيل الحق .

(٦) يقول القرآن الكريم : ( ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ) .

(٧) اليد التي تمتد بالعطاء ، خير واشرف من التي تبسط للأخذ !!

مِمَّا كَثُر وأَلْهى . وشَرُّ ٱلمَعْذِرةِ حينَ يحضُرُ الموتُ[1] وَشرُّ الندامةِ يومَ القيامة[2] . وَمِنْ أعظَمِ الخطايا اللِّسانُ الكذَّاب، وخَيْرُ الغِنى غنى النَّفس[3]، ورأْسُ الحِكْمةِ مخافةُ اللهِ عزَّ وَجلَّ، وخيرُ ما وَقَر في القُلوب اليقينُ[4]، والنِّياحةُ مِنْ عَمَلِ الجاهِلَّية، والغُلُول من نار جهنم[5] والخَمْرُ جِمَاعُ الإثم، وَشرُّ المأْكل مالُ اليتيم[6]، والسَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره، ومِلاكُ العمل خواتِمُه[7] وَسِبابُ المؤْمن فسوقٌ، وقِتالُه كُفرٌ، وأكلُ لَحمِه مِنْ مَعْصيةِ الله[8] وحُرْمةُ مالهِ كحُرْمَةِ دَمِه، وَمَنْ يَعفُ يَعفُ اللهُ عنه، ومنَ يكْظِم الغَيظَ يأْجُرْهُ اللهُ، ومن يَصبِرْ على الرزيَّةِ يعوِّضْهُ الله، ومَنْ يَعصِ اللهَ يعذبْهُ الله» . ثم قال عليه السلام بعد هذه الخطبة : ــ أَسْتَغْفِرُ اللهَ لي ولَكُم، أَستغْفِرُ الله لي ولَكُم، أَستَغْفِر الله لي ولَكُمْ ... »

---

(١) لأن وقت العذر قد مضى، وعند الموت لا تقبل توبة ولا اعتذار !!
(٢) لأن الندم لا يرجع الانسان الى الدنيا .
(٣) لان فيه القناعة، والرضا، والكف عما في ايدي الناس، وهنا تتحقق السعادة كل السعادة .
(٤) لان الشكوك والريب، تنكد حياة المرء، وتبدد الطمأنينة .
(٥) الغلول : اخذ شيء من الغنائم خفية قبل التقسيم .
(٦) يقول القرآن الكريم : ( ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، انما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً ) .
(٧) انما قوام الأعمال ونتائجها في نجاح خواتيمها، فرب عمل حسن بدءاً، وساء خاتمة
(٨) أكل لحم الانسان الحي : كناية عن اغتيابه وذمه .

هذا كلام ضبطه أرجح عقلٍ ، وصدر عن أشرَف نفس ، وهو على استواء واحد في جملته وتفصيله . كل جملة حكمة وكلٌّ حكمة نجاة في الدنيا والآخرة ...

***

وقوله ﷺ اما بعد فان أصدق الحديثِ كتابُ الله ، علّمنا وأرانا انه ليس فيما يتحدث به المتحدثون ، وينمّقه الكاتبون ، ويقررُه العلماءُ ويبرمه ثم ينقضه الفلاسفةُ — ليس أصدق تأويلاً ، ولا أصحَّ حكماً ، ولا أعدلَ قضاءً ، ولا أبرَّ بالانسانية ، ولا أسعدَ للمجتمعات ، من تلك الآيات البيّنات التي أنزلت مِنْ لدن حكيمٍ عليم ، فأقرأوها بتؤدةُ ، وتروّ وتدبر وحضور قلب ، وإطالة فكر ، ترْوا عجائب لا تنفد ...

اما قراءةُ القرآن في ذهول وغفلة ، واتخاذه لمجرد التمائم ، لا للعمل بما فيه ، فأخوف الخوف أن يحق على فعل ذلك قوله تعالى ( واتّخَذُوا آياتي وما أُنذرُوا هُزُواً ) ، وفي الحديث الشريف : ( كَمْ مِنْ قارىءٍ للقُرآنِ ، والقُرآن يَلْعَنُهُ ! ) .

وقوله ﷺ : «وأوثق العُرى كلمةُ التقوى» اشارة قوية الى أن منابع السعادة هي في الخلق القوّي — لأن ( التّقْوى ) كلمةٌ جامعة ، تنتهي كل معانيها الى ( الخلق الثابت ) الخُلُق الذي لا يتغير بتغير الأحوال ، ولا باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ومتى ثبتت ملكةُ التقوى ، تراءى للمتقي جلالُ ربِّه ، وبرهانُ ربه ، عند كل عمل من الأعمال التي يُقدم عليها ، فيسارع الى وقاية نفسه من الهلاك ، ومن سخط الله . فالتقوى من الوقاية .

الخلق الثابت — أو التّقوى — تكفُّ الانسانَ عن الشر والإثم غائباً عن أعين الناس ، أو حاضراً أمام الناس . الخلق الثابت ، أو التقوى ، يصدر عنه الخير دائماً من الانسان ، راضياً أو ساخطاً ، غنياً أو فقيراً ، في دَستِ المنصب أم بعيداً

عن المناصب . وانما يُكوّن التقوى ويكوّن الخلق الثابت ، الخوف من الله ، ومراقبته في السر والعلن ...

لقد سَعِدَتْ أمةٌ جعلت هذه الحكم النبويةَ دستوراً لها، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله .

# معنى الحرية الشخصية

•

يروي ابن المبارك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

«إنَّ قوماً ركبوا سفينةً في البحر ، فاقتسموا ، فصار لكلِّ رجلٍ منهم موضعٌ ، فنقرَ رجلٌ منهم موضعَهُ بفأسٍ ، فقالوا له: ما تصنع ؟ فقال: هو مكاني أصنع فيه ما شئت . فان أخذوا على يديه نجا و نَجَوْا ، وإن تركوه هَلَكَ وهلكوا» .

هديٌ نبويٌ بلغ الغاية من الإحكام والتصوير ، يوضح ويحدد حقَّ الفرد ومعنى حريته ، وحقَّ المجتمع ومقدار مسؤوليته ، فالحرية الفردية كفلها العقل والشرع لكل آدمي ، لأن سلبها إهدار للكرامة الآدمية ، ولكن العقل والشرع أيضاً قد جعلا المجتمع مسؤولاً عن شذوذ الافراد ، وعن جموح الحريات ، فاذا لم يبادر المجتمع الى مكافحة الشرور والأهواء والنزوات ، ولم يضرب على أيدي العابثين بسلامته وأمنه وأرواحه ، كان هذا المجتمع آثماً ، وكان على خطر أن يهلِك كله ، أفرادُه وجماعاته ، كركاب السفينة الذين تركوا عابثاً يعبث في مكانه ، فيحطم ركناً من أركانها ، فتهوي براكبيها الى الاعماق .

اننا في خضم الحياة ، نكوِّن مجتمعاً ، ونؤلف جماعة ، كركاب السفينة ،

ولكلٍّ منا عمل وأثرٌ في تنظيم سيرها ، وصيانة أجزائها ، والحرص على سلامة كل ناحية منها . فاذا نحن وزعنا العمل ، وحددنا المواضع ، واقتسمنا الأمكنة ، فليس معنى ذلك ان نُغفِل نظام السفينة العام ، وان يستبد كل بموضعه يفعل فيه مايشاء بحجة انه مكانه هو ولا شأن للآخرين به ، ليس اختصاصُ كلٍّ بمكانه ، وتعريفه بعمله ، يبيح له أن يَذهَل فيُغفِل حقوق سائر الافراد ، ويغضيَ عن بقية الأماكن ، فيعمَد في نزوة من نزواته الى لوح من ألواح السفينة ، يُحدث فيه خَرقاً ، أو يشُقّ شقاً ، اعتماداً وتشبثاً بأنه مكانه هو ولا حق لغيره فيه . لا . لا . انه مكانه ومكانُ الآخرين جميعاً ، وهو حرٌّ في أداء عمله على مايراه مصلحةً وفائدةً ، إلا اذا تنافر وتعارض مع عمل الجميع . عندئذٍ يصبح الكل مطالباً بالأخذ على يد العابث ، وتداركِ شذوذه وشروره حتى لا تتحطم السفينة ، وتندفع المياه فيها ، فيهلك الفرد ، ويهلك أهل السفينة جميعاً .

الحريةُ الفردية مكفولةٌ مصونة مرعية ، الا أن تُمس حرية الآخرين ، وإلاّ أن تصيب من بناءِ المجتمع ، وإلاّ أن تجمح غيرَ مقيدة بقيد ، ولا محدودة بحدود .

هذا المثل الذي صوره الحديث الشريف ، يوضح الأخطار المحققة من كل حرية عابثة آثمة ، ويرينا كيف يعمّ الشر المجتمع كله ، مَن أثِم ومَنْ لم يأثم ، وإن علاقة كل فرد بمجتمعه علاقةٌ وثيقةٌ قويةٌ ، فمن شأن المجتمع الحي اليقظ أن يبادر الى وقاية نفسه من عمل كل فرد جامح ، وإلا فقد حق الهلاك على المجتمع وعلى الفرد . يقول عزت آياته : ( واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ) فهذا خطاب للأمة جمعاء أن تتنبه الى الاخطار التي تُستهدف لها بفعل بعض الافراد وكم من أمم فني أبرياؤها نتيجةً لنزواتِ أكابر مجرميها الذين لم يجدوا منكراً من أمتهم على مآثمهم .

ان الاسلام يحافظ على الحرية الشخصية ، وعلى الاستقلال الفكري ، ولكن في حدود حقِّ الجماعـــة ، وفي كنف الشعور بأن حياةَ الفرد قائمـةٌ بحياة الجماعـة .

أَلاَ إن هذا الحديث الشريف لينادي بأن الحريَّة لا يَسْتمتع بها أحدٌ الاَّ اذا راعى قيودَها ، ووقف عند حدودهـــا . والحر هو من تحرر من أهوائه ، وعاش لنفسه ولمجتمعه .

## رسول الله صلى الله عليه وسلم

## يبين اسباب ضعف الامم وانحلالها

روى أبو داود والبيهقيّ ، في دلائل النبوة عن ثوبان – مولى النبي ﷺ – أنه قال :

« يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعى عليكم ، كَمَا تدَاعى الآكلةُ الى قَصْعتها . فقال قائل : — ومن قلَّة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أَنْتم كثيرٌ ! ! ولكنكم غُثاءٌ كغثاء السيل ، ولينزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدوِّكم المهابةَ منكم ، ولَيَقْذِفَنَّ في قُلوبكم الوَهْن . قال قائل : — وما الوَهْنُ يارسول الله ؟ قال : حُبُّ الدنيا ، و راهة الموت » .

في كل وقت ، وحيث يجتمع الناس ، وحيث يسمُر الأصدقاء ، لن نرى ولن نسمع الا شاكياً ساخطاً ناقِماً . ( فلان ) يصف ما يحيق بالأمم الاسلامية من ظلم وبغي وعدوان ، ( وفلان ) يشفق مما تتمخض عنه الأحداث من ضياع أوطان ، وانتقاص حقوق ، واذلال بلاد ! ( وفلان ) يصوّر في مرارة وحزن مظاهرَ الضعف ، وعلاماتِ الانحلال ، والكل يتساءل عن أصل هذا البلاء ، ويتحرّق للعثور على الدواء ؟! وفي الحق لقد صدق القائل :

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر !

وان هـــذا الحديث الشريف ليصف المرض الاجتماعي الذي أصاب الأمم

الاسلامية ، ويبيّن أعراضه وآثاره ، ثم يشير الى طرائق العـــلاج ، ووسائل الشفاء . . .

اما المرض الاجتماعي ، فالتقاطع والتخاذل والاختلاف ! بيّن هذا ما رواه البخاري عن ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : « لا تختلفوا ، فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » وانما يجيء الاختلاف والفرقة والشتات ، من شعور كل فرد أنـه وَحدةٌ قائمة بذاتها ، لا واجب عليه لمجتمعه . وفوق هذا فله كلُّ حق على المجتمع !! ولقد يتضخّم الشعور بالذاتية ، فلا يعود الفرد يشعر بمجتمعه ولا بآلامه وآماله ، فتنقطع الروابط ، وتَنْبَتُّ الصلات ، وتنحل العُرى ، بين الفرد وبين أسرته ، وبينه وبين ذوي رحمه ، وبينه وبين أفراد أمّته ، وعند ذاك يصبح الأفراد كما وصفهم الحديث غثاء كغثاء السيل : كالورق الجـــاف المتساقط من فوق الأشجار ، ورقٌ بال ذابل ، لا قوام له ، ولا حياة فيه ، ولا فائدة منه ! ورق تـذروه الرّياح ، غثاء يدفعه السيل ، وقد كان من الشجرة قبل ذلك جزءاً فيها يستمد وجوده وحياته منها ويفيض من حياته عليها يُكمّلها ويزينها ويزدان بها ! يأخذ غذاءه منها ، ويهبها غذاءها . . .

هكذا يصف الحديث الأمةَ الكثيرةَ العدد ، المقطعة الأوصال ، المبدَّدَة القُوى ، الشتيتة الآراء والمذاهب . . .

***

ويقول الحديث : إن شأن هذا المجتمع الذي تمشت فيه الفرقة حتى قطعت أوصاله — شأنـه أن يُغْرِيَ الامم الأخرى به . وأن يُهيّء لهـــا السبيل للانقضاض عليه . . . فهي تتداعى ، يدعو بَعضها بعضاً الى الفتك به والتِهامه ، كما يدعو الجيـاعُ بعضهم بعضاً الى قصعة ملأى بالطعام ! ولعمرُ الحقّ اذا تهيّأ الطعام الشهي لجياع جشعين ، فماذا يبقى الا النهش والازدراد !

***

يقرر الحديث الشريف أن شر ما يصيب الامم الاختلاف والفرقة ، وأنهما يذهبان بهيبة الأمم ، وبكرامة الشعوب . ومنشأ كل فرقة ، ومبعث كلِّ اختلاف

الأَثَرَةُ وحبّ الذات ! فاذا ما استشرى داء الأثرة ، وتغلغل في قلب الفرد قذف الله فيه الوَهنَ ؛ والوهن هو الافراط في حُبّ الدنيا ! وانه ليدعو الى التكالب والتناحر على جمع الحطام الفاني ، فينشأ الحرص والبخل ، ويُقدَّر متاعُ الدنيا تقديراً خاطئاً لا تتسع له الحياة ، واذا ترك الانسان نفسه للانانية أخذت بالسمع والبصر والفؤاد ، فلن يرى المرء غير نفسه ، ولن يستمع إلاّ الى نفسه ولن يفكر الا في نفسه ! حتى اذا ما عرضت له الحقيقةُ الكبرى ، الحقيقة التي لا مفر منها ، غاية كلّ حي ، وهي ( الموت ) أعرض وتولى ، واستبعد حلول الأجل ثم لاذ بالجبن والضعف والنفاق حرصاً على الحياة ، فيعيش ميتاً بين الاحياء ! وصدق القائل : — الناس من خوف الموت في الموت .

***

انما سعد المجتمع يوم كان الفرد لأمته لا لنفسه ، ولمجتمعه لا لذاته ، هناك انبعثت الشجاعة الاسلامية ، والتفدية بالنفس في سبيل الحق . فليرجع كلٌّ الى نفسه يسائلها قبل ان يحرك لسانه بالسخط على المجتمع ، والتشكي من الانحلال والضعف — يسائل نفسه ، هل هو يُحبُ لأخيه ما يحب لنفسه ؟ وهل هو يألم لأخيه كما يألم لنفسه ؟ وهل هو يشعر بشعور جماعته ، وبأنه خَليةٌ من خلايا المجتمع يُحييها ويحيا بها ؟ وأنه اذا مرض عضو من أعضاء المجتمع مرض الجسم كله ؟ إن كان كذلك ، فليعلم أن المجتمع يتمشى فيه البرء ، وإلاّ فليعالج الشاكي نفسه قبل أن يتسخط ويتشكّى ويتحسّر ، وقبل أن يرفع الصوت عالياً باللوم والعتاب .

# الحج مصحة روحية

كنت استودع الله عزيزاً يحج في الوافدين على بيت الله الحرام . فلما كنت بالمرفأ ، واستبان طريق جُدة ، وآذنتنا الباخرة بالاقلاع ، طافت بي وجرت في نفسي تلك الخواطر :

لعل فريضة الحج التي أحكم الله شرعتها في السنة الخامسة من الهجرة ، وجُعلت دعامة من الدعائم التي بُني عليها الاسلام — لعلها أبلغ الفرائض جميعها في توجيه النفوس الى الله وحده ، وتخليصها من شوائب الاشراك ، وتطهيرها من مآثم الحياة ، ومباذل الشهوات ، ومزالق الكبرياء . ثم لعل الحج وفعاله وشعائره ومناسكه هي الدروس الإلهية العالية التي تكشف للمرء عن غروره ، وتُنهنه من حدته ، وتكبح من جموحه ، وتغسل من أدرانه ، وتقوِّم من انحرافه ، وتذكره بحقيقة أمره : يوم وُلد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا .

ولعل ذلك اليوم المشهود «يوم عرفات» وقد سالت الأودية بأعناق المطيّ ، وتغطى أديم الأرض ببني الانسان من آلاف الزمر في لباس مجرد ، وشعر مغبر ، ورؤوس مكشوفة ، ووجوه مكدودة ، من شتى الاجناس ، واخلاط الامم ، يجمعهم على اختلافهم التوحيد ، وهم يهتفون : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والملك لك ، لا شريك لك . لعل ذلك المظهر أبلغ دروس الحياة في المساواة ، وأشدها بياناً لِلُحْمة الأخوة التي ترجع الناس إخواناً ، وتُلقي في وجدانهم قول نبيهم — عليه السلام — في موقف عرفه على ما رواه

احمد من حديث أبي نضره : أيها الناس . ألا إن ربكم واحد ، وان أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى . أبلّغت ؟ قالوا : أُبلغ رسول الله ﷺ .

لقد كانت تلك الفِكَر يزدحم بها رأسي ، وأنا بالمرفأ ، والباخرة تؤذن بالرحيل ، وقد علا التكبير ، وتصاعد ذكر الله ، وارتجت الأرجاء بالتوحيد ، ووجد الواجد ، وهام الهائم ، وسمت بالنفوس المعاني الدينية في عُلاها سمواً لا يدركه إلا من تذوقه ، وكان حاضره ، «وما راء كمن سمعا» . عند ذاك لاح لي (شيخ) محنيّ الظهر من أعباء السنين ، طلق الوجه من نور اليقين ، لعينيه بريق أخاذ يسلطه عليك ، فاذا أنت مأخوذ بتلك الشخصية العجيبة . قال لي هذا الشيخ وهو يرسل طرفه في جمهور الحجاج : أرأيت كيف يسرع الفارّون من جيوش الذنوب والآثام الى ساحة مولاهم؟ قلت: زدني إفصاحاً، زادك الله صلاحاً. قال: استمع الى قصة الحج من اولها الى منتهاها :

إن الله — جلت حكمته — يشرع من العبادة ما يصلح النفوس ، ويداوي الأخلاق ، وما يتسق مع مدارك بني الانسان ، وعقلهم المحدود .

ولقد ألف الناس ، اذا نزلت بهم العوادي، أو حل بهم قحط أو جدب ، أن يجأروا بالشكوى الى ملوكهم ، ليردوا غارة الاعداء عنهم بعد أن عجزوا عن مقاومتهم ، فاذا ضجت الشكوى، ساروا الى حمى الملوك ضارعين صارخين ، راجين دفع الاذى ، وكشف الهم ، ودفع الأعداء ، ولقد تراهم شعثاً غبراً على على مقدار ما نزلت بهم المحن ، وفدحتهم الخطوب ، ثم ترى مشاهد الضراعة والطاعة بادية عليهم ، ومظاهر الخوف والاجلال تشتملهم . فكلما اقتربوا من رحاب الملوك اكبروا الارض ، وعظموا النبت ، واحتموا الحيوان والشجر . حتى اذا لاحت ديار الملك ومنازله شرعوا يطوفون حولها ، ويتمسحون بأذيالها ، ويترددون على جنباتها رجاء ان يؤذن لهم ، وان يُستمع لشكاتهم .

فاذا رأى المليك صدق ولائهم وصحة ضراعتهم اذن لهـــم بالمثول في الحضرة، وشرفهم بالاقتراب من السدة ، واذن لهم ان يبثوا ما لديهم . فلا يزالون يثنون عليه بما هو أهله ، ويفصلون آلامهم ، ويستمنحون النصر على أعدائهم، فيتكرم المليك ويعدهم النصرَ والفوزَ وردّ العوادي ، ودفع الاذى ، ومـا اعظمها منهً اذا ما تلطف المليك فأذن لهم بتقبيل يده — لقد يرونها مكرمة اشرف مكرمة. ثم تتوالى تعطفات المليك فيذكرهم بأيامه مـع آبائهم ، ومآثره في اسلافهم لان هؤلاء الآباء والاسلاف كانوا صادقي الولاء، ظاهري العبودية ، دائمي الطاعة ، لهم ايام معلومات، ومآثر معروفات، وأحداثٌ تاريخية مذكورات، فاذا ما ادركوا ما كان عليه آباؤهم ، انطلقوا يفعلون فعالهم ، ويجرون على سننهم ، ويستعيدون ذكراهم ، ويقومون بشعائرهم ، وأن في تمثلهم بآبائهم لشعاراً للولاء الصـــادق والطاعة الكاملة . عند ذلك ، ينزلهم مليكهم دار ضيافتـــه ، ويجري عليهم أطايب أرزاقه ، ويأمرهم أن يزيلوا أسباب الروع فيغسلوا أدرانهم ، ويصلحوا ما أفسده السفر الصـــارخ ، والرحلة المروعة ، استعداداً لتلقي الخلع السامية الملكية. فاذا ازدانوا بعطاء مولاهم، دفعوا بالباب يستنجزون وعده، ويطلبون الامان الشامل، وصرف الاهوال والارزاء، فيستجيب لهم ملكهم، أن قد صرفت الاعداء عنكم، ودفعت الجور عن منازلكم ، فارجعوا دياركم آمنين مطمئنين . عند ذلك يتملكهم البشر والفرح والابتهاج ، فلا يلبثون أن يعودوا الى سدة المليك شاكرين مثنين ، طيبة نفوسهم، مستأذنين في العودة ، وليس فيهم الا نعيم البال، وصدق الاخلاص ، وطهارة الوجدان وبراءة النفس .

قال الشيخ : فتنظر واعتبر اذ جعل الله مثلاً من انفسهم ومن ملوكهم — ولله المثل الاعلى — . لقد خصص الله بقعة من الارض وكرّمها ونسبها اليه ، تشريفاً لها . وذلك البيت هو الكعبة — بيت الله الحرام — والله يتسامى عن البيوت ، ويتعالى عن الحلول ، وانما كانت الحكمة في ذلك صلاح العباد ، بتوحيد وجهتهم، وإفراد معنى القداسة لهم . وقـــد ورد في الآثار أن الحجر الاسود في ركن من

اركان الكعبة يمين الله، وذلك رمز من الرموز – فالله يجل عن الاشباه والنظائر، وعن الجوارح .

قال الشيخ : ولقد ترى الانسان في تلك الحياة لا يزال يجالد نوازع الشر، ويقاوم دواعي الشهوات، ولقد يعجز في هذا النضال فيسقطه الاعياء . فرأى المشرع الاسلامي من الرحمة بالناس أن يُحييَ دوافع الخير فيهم، وأن يبعث روح الأمل عندهم بالتوبة النصوح، وجعل لها موسماً هو موسم الحج . وإن شئت فقل ان هذا الحج جُعل مصحة للنفوس من الانانية والفردية، وجُعل مدرسة اجتماعية تري الناس كيف تجمعهم الجماعات، وكيف يتلاقون جميعاً في أصل خلقتهم فلا طبقات، ولا فوارق، ولا جاه ولا سلطان .

لقد جعل الله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا . يذهبون استجابة للرحيم الرؤوف غافر الذنب قابل التوب، يذهبون معترفين بذل العبودية، ذاكرين قوله تعالى :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا الى ربّكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو ان لي كرة فاكون من المحسنين » .

يذهبون ضارعين الى الله محترمين حِمى ذلك البيت العتيق، لا يقطعون نبته ولا يقتلعون شجره ولا يقتلون حيوانه ولا يصيدون أطياره، حتى اذا بلغوا المنزل

الممجّد طافوا حوله طواف اللاجىء المستغيث ومسحوا بأستاره مسح المستجير، ثم قبّلوا الحجر المبارك – الذي يسمى يمين الله – تعالى الله عن التشبيه .يطبعون بشفاههم قبلة الطاعة وهم يعتقدون أنه حجر لا يضر ولا ينفع وانما النافع الضار هو الله الواحد القهار ، كما ادرك هذا المعنى الرجل المؤمن حقاً الذي أخذ الدين من فم صاحبه عمرُ بن الخطاب ، اذ يقول : «إني لأعلم انك حجرٌ لا تضر ولا تنفع . ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» . ثم ينصرف الحجيج بعد ذلك الى اعمالٍ ومناسكَ وشعائرٍ كلها كان يفعلها الآباء والاسلاف كالخليل ابراهيم وابنه اسماعيل، كانوا يفعلونها تقرباً الى الله وحده، وقياماً بحق العبودية، واطاعة لما أُمر به كالسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة والنزول بمنى ، ورمي الجمار . وما اروع ذكرى رمي الجمار التي ألهمتني حكمتُها محنة ابراهيم خليل الله .

قال الشيخ : واستمع الى ما اقول: ان ابراهيم خليل الله قد امتحنت طاعته لله واذعانه لامر ربه امتحاناً قاسياً ، بل هو البلاء العظيم ، كما قال الكتاب الكريم – أمتحن اذ امره الله أن يذبح ولده ، وفلذة كبده ، فامتثل أمر ربه ، وبادر الى تحقيق طاعته ، وذلك اقصى ما يصل اليه معنى العبودية ، وأصدق ما ينتهي اليه الايمان ، وهنا مجال لدسيسة شيطانية :

وللشيطان مآرب تدقُّ وتخفى وهو الذي يحكي لنا القرآن حكايته وقوله : « فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيْمانهم وعن شمائلهم ثم لا تجد أكثرَهم شاكرين » – فمجال الدسيسة هنا فسيح ، وخطْبُ ابراهيم جللٌ ، فليس غريباً ان يتعرض إبليس في طريق ابراهيم وهو سائر لذبح ولده ، وأن يتخيل ثم يخال ، ولكن معاذ الله ان ينثنيَ ابراهيمُ عن قصده ، فابراهيمُ كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً . كان عقيدةً مجسمة ، لم يبق في قلبه ما يصرفه عن ربه حتى لقد استهان بالنار وألقي فيها ولم يرجع عن عقيدته !! فاذا ما تمثل له إبليسُ وهو ذاهبٌ لذبح ولده

طمعاً في ان يصرفه هول الفاجعة فليس بِدعاً أنّ ابراهيم يحصب بالحجارة هذا المثال الشيطاني اذا عرض له وان يرجمه بالجِمار – قطيعةً له ولما يُسوِّل به ، وإعلاناً للحرب عليه وعلى حزبه ، حزب الشيطان «ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

ألا فليذكر الحاج وهو يرمي الجمار انه يحصب الشيطان ، وانه في طاعته هذه قد قطع ما بينه وبين ابليس وقذف به الى حيث ينبذ العدو ويحتقر .

قال الشيخ : ولقد يسمي بعضُهم السعي والرمي والوقوف أفعالاً تعبدية فيظن الأغرارُ أنها خالية من الحكمة التشريعية – والحق – أنّ تلك الأفعال مليئة بأسرار الاخلاص لله وحده ، مليئة بمعاني الطاعة ، ممكِّنة لها في النفوس ، وأنّ من شأن المؤمن الصادق أن يُذعن للأمر الإلهي خضوعاً وتسليماً ، وإن لم تعلق مداركه بثمرته العاجلة ، نعم من شأنه ان يُعظِّم شعائر الله ويُعظِّم حرمات الله فانها من تقوى القلوب وعلى ما في القلوب المعوّل .

قال الشيخ : فاذا ما انتهى الحجيج من القيام بتلك الطاعات التي قام بها ابراهيم واسماعيل والحنفاء من بعده ، وقد كان ابراهيم إماماً ، قال له تعالى : «اني جاعلك للناس إماماً » – اذ ما انتهى الحجيج من الاقتداء بابراهيم وتذكّر سوالف مآثره – أنزله الله تعالى دار ضيافته بوادي مِنىً يزيلون شعثهم ، ويرتدون ثيابهم ويتطيبون ، ويحل العيد وتمتلىء الاودية بالضحايا إطعاماً للفقراء واختباراً لسماحة الاغنياء . وقد حُرِّم صوم يوم العيد لأنه إعراضٌ عن ضيافة الله . ولا تزال قلوب الحجاج متعلقة بوعد الله أن يجيرهم من عدوان آثامهم ، وان يصلح ما افسدته الذنوب من نفوسهم فيعودوا طوّافين بالبيت طلباً للاحسان ، واستنجازاً لوعد الرحمن ، ورغبةً في الطمأنينة من نوازع الشر ، هنا يستجاب لهم فضلاً من الله ونعمة ، ويؤذن لهم بعودتهم ، وقد شملهم الفرح الأكبر بغفران ذنوبهم وبراءة انفسهم وطهر شمائلهم ، ينعطفون بعدُ إلى الطواف ،

طواف الوداع، شكراً لله على جلائل نعمه، واشادةً برحمته التي وسعت كل شيء.

قال الشيخ :

هذه قصة الحج وإنها لأحسنُ القصص ، إصلاحاً للنفوس ، واستمناحاً للغفران ، واستذكاراً لعظماء النفوس ، أمثال ابراهيم الخليل ، واستجماعاً للخيرات من منابعها ، واصول شرائعها من حيث تنزّل الوحي على محمد – عليه السلام – لإنقاذ الانسانية وإسعاد بني الانسان .

انها قصة الحج، اختبارٌ حكيمٌ للمساواة، وجامعةٌ اسلاميةٌ وثيقة العُرى، وتمكينٌ للاخوّة الانسانية ، وتثبيتٌ للتقوى ، والتقوى هي لباب الشريعة ، وغاية الغايات من العبادات . واذكر قوله تعالى فيما يُذبَح من الهَدْي في الحج : ( لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ) .

●

وهنا انتهى الشيخ من قوله ثم غاب عني في سواد الحجيج ، فلم أظفر به ...

أترى ... هذا الشيخ ... كان رسول الالهام ! وكانت مقالته حكمة الملهمين ؟...

# من وحي الحج ومن إلهام الزيارة

## ١

هذا الحديث خاص ببعض ما أوحت به رحلتنا الى الحـــج ، وبعض ما ألهمتنا إياه زيارتنا للمدينـــة المنورة ، وإنه لحديث هتفت به نفوسنا من فرط ما تأثرت ، وتجـاوبتْ به أرواحنا من فيض ما نعمت في مراحل الحج مرحلةً مرحلةً ، وفي منـــازل المناسك مشهداً مشهـداً . ولسنا نعدو — عَلِمَ الله — وصف شعورنا ، وقـد لا نستطيع وصف هـذا الشعور ، إذْ هو وميضٌ ، أو إشراقٌ ، أو صفاءٌ ليس مبعثه الارض وانما مبعثه السماء ، مبعثه الله مقلب القلوب ، القائمُ على كل نفس ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ...

***

الحج علاج روحيٌّ ، يُصرِّف أزمات النفوس ، ويطارد اوهام الحيـاة ، وينقل الانسان الى جو كله الراحة النفسية ، والطمـأنينة القلبية ، حيث تبدو

أمام بصيرته الحقيقة الانسانية عاريةً صريحةً واضحةً ..: فلا لبس ولا ابهام. أو ليس الانسان يولد عارياً ، ويرتحل عن هذه الدنيا عـــارياً ؟ وان بني آدم سواسية في ذلك ، كلهم يُطلّ على الدنيا عارياً ! وكلهم ينزل حفرته عارياً ! ! كلهم يُطل على الدنيا فقيراً . فما بال تلك الاوهام وقد سيطرت على الانسان وهو يَعْبر تلك الحياة ؟ ما باله يقوّم الاشياء اكثر من قيمتها ويتوهمها على غير حقيقتها ، فيجلب لنفسه الشقاء الدائم ، والعيش الأنكد .

إنّ الحياةَ اللاهية الصاخبة العابثة لاتدع للنفس سبيلاً الى الفكر ولا الى التأمل . لكنّ الحياة في الارض المقدسة وبـين ربوع الوحي ، وفي الأفق الذي أطلَعَ الرسالةَ ، وفي الثرى الذي انبت (محمداً) ﷺ – هناك الحياة جـــادةٌ هادئةٌ وقور . هي حياةٌ توحي بالفكر وتبعث على التأمل فتعيد للأرواح قوتها وسلطانَها على المادة وتصحح للمرء حكمه على الأشياء .

لقد أرى الانسانَ قبل أن يحج خاضعاً لسلطان المادة تُصرِّف روحه وعقله، لكنه بعد أن يشهد المشاهد المقدسة ويتمثل هناك شخوص الأنبياء ( ابراهيم ) و(اسماعيل) و(محمد) وآثار هؤلاء الانبياء . ثم يندمجُ في الروح الكلي لهـــذا المجتمع ، ثم يفكر ويتأمل – فيصبحُ وقد أخضع المادةَ لِسلطان عقله وروحه فلا يرى فيها الا ما هي جديرة به . فهو لا يقدّس المادة وانما يقدس الروح وهو لا يُستَعبَد للحياة وانما يعلو على الحياة .

أوَليست أولى مراحل الحج هي الإحرام، وهو كبتٌ لـــلأهواء واطراحٌ للمظاهر الكاذبة الخادعة ؟ إنه تجرّدٌ عـــن الثياب المحيطةِ الموشاةِ المحَبكةِ الأنيقة التي تحجب حقيقةَ الانسان ، وتجعل من بني آدم صنوفاً وطبقـات . لكلٍّ شعارٌ . ولكلٍّ دثارٌ . ولكلٍّ شارةٌ ولكلٍّ علامةٌ . فاذا مـــا أحرموا في ازرِهم وأرديتهم ، ورؤوسهم عاريةٌ وأقدامهم حافيةٌ ، فقد رُدّوا الى حقيقتهم ورجعوا الى أنفسهم وأدركوا مقدار ما يكفيهم من العيش ؛ وما

يواريهم من الثياب . وليست الزيادة على ذلك الا جلباً للهمّ وتنغيصاً للعيش وإثارةً للتناحر والتناهب والكيد والعدوان ..

***

واذا كان من حق الاجسام أن تستجمّ كلّ عام ،وان تستشفيَ في المشاتي والمصايف ، وأن تطلب علاج الأعضاء في شعاب الجبال ، وبين مساقط المياه ، وعند منابع العيون ، فأحرى ثم أحرى أن نتلمس للأرواح علاجاً في رحلات كرحلة الحج !! هناك يرتقي الانسانُ بنفسه عن مهابط المآرب ، ويدرك أفقاً عالياً من الأريحيّة ، ويشعر بصفاء وطمأنينة ورضا ، مبعثُها فهمُ حقيقة الحياة ، والأخذُ بالشيء من جوهره دون عَرَضِه ، ومن لُبابه دون قشوره ، ومن باطنه دون ظاهره ...

***

من قبل أن تبدأ الرحلة الى الحج ، ومن قبل أن يحل يومها، بل بمجرد إزماع السفر، وانتواء النُسُك، أخذنا شيئاً فشيئاً نَتَخَفّفُ من أثقال الحياة وتبعاتها ونندمجُ شيئاً فشيئاً في الجو الروحي الذي تتهيأ له النفس، وتتطلبه من ينابيعه الأولية .

فلقد كُنّا ونحن على ظهر الباخرة أحرصَ ما نكونُ على تحاشي اللغو من الحديث ، والعبث من الكلام، يسود الكلّ إخاءٌ وود وصفاء وسلام . جاعلين نصب أعيننا : « فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنّ الحجّ فَلاَ رَفثَ وَلاَ فُسوقَ وَلاَ جِدَالَ في الحَجّ » حتى اذا ما عاودت المرءَ عادتُه ، وغفَل أو سها عما هو بسبيله في رحلته ، فراح يَلْغُو أو أخذ يعبث ، ابتدره أخوه ورفيقه يهتف به مذكراً منبهاً ( لَبَّيْكَ اللّهُمّ لَبَّيْكَ . لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لبيك ) عندئذٍ يعود الحاجُّ الى ما بدأ فيه ، ويرجع الى نفسه ، فيأخذُ

فيما يأخذ به الحجاج من تدبرٍ وتأملٍ وفكرٍ ويقظةٍ روحية ...

وفي كل مشهد ، وفي كل طريق ، وعندَ كل أثر ، وأمام كل مَنسَكٍ يشعر الإنسان بمصادرِ القوة الروحية . ويدركُ انه أخذ يتفهَّمُ حقائقَ الوجود ! ! هناك تناجيك أقدسُ الذكريات . فتَصُبُّ في وَعْيِكَ اليقين والطمأنينةَ صَبّاً . ثم يذهب بك الفكر في أغوار الزمن الى حيث ترى صُورَ التاريخ حيةً . وترى شخوصَ الأنبياء . والصديقين والشهداء . تراهم وقد علاهم جلالُ الحق . وجلَّلَهم نور اليقين . وحفّتهم سكينةُ الله . حتى لتهتز الدنيا وهم ثابتون . وتطير الأفئدة وهم راسخون . والعزاء الوحيد لتلك النفوس التي سَمَتْ فوقَ الحياة ، وفوقَ الشدائد ، وفوق الأحداث « لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا » .

لقد أَخذَني الرَّهْبُ والتهيُّب من الساعة التي خَلَعتُ عني فيها مظاهرَ الدنيا ، وارتديتُ ثيابَ الإحرام البسيطة ، وكلما مرَّت الساعات ، واقترب الشاطىء المقدس ، يأخذني في عِنَانِه سابحٌ جوَّال من الفكر ، وتزدحم أمام بصيرتي صُوَر التاريخ المقدس ، وأُجري في خاطري : أحقاً !! ان كل ما قرأته ووعيتُه وحفظته من كل معنى ديني ، سأرى غداً او بعد غد أُفقهَ رأيَ العين ؟؟ واتنفسُ في جوه بملء رئتي ؟؟ ثم أترسم خطواتٍ شريفةً مرَّت هاهنا !! وهنا !! ودَرَجتْ بين تلك الشِّعاب ، وفي هاتيك الهضاب ؟ فأيُّ سعادة تنتظرني ؟ وأيُّ نعيم رُوحيّ يترقبني ؟!

وما كدتُ آخذ في طريقي بين جدّة ومَكّة أمِّ القرى ، حتى صرتُ أتعجلُ السائقَ ، وأسأله : متى نصل الى ( مكان الحديبية ) ؟ ومتى نستمليَ جوَّها ؟ ونرسل أبصارنا وبصائرنا بين أقطارها ؟ فيجيب السائق : — لقد صرنا منها أو من ( الشَّميسي ) — الذي صار اليوم محطةَ منطقتها — صِرْنا منه قاب قوسين !!!

ولا بد من ان ندرك مكةَ قبل الغروب !! فقلتُ يا لله ، إنَّ قلبي ليهفو الى مكة والى جَوِّ مكة ، وإن نفسي لتنازعني ان أنزل ( الحديبية ) وان أعيش في جوها لحظة ، إن لم يسعدني الوقت بطول المقام !!...

وقد كان ! ونَزلنا هناك – في الحديبية – وصلّينا ، وسَرَّحنا طَرفَنَا . وطافت برؤوسنا كلُ أحداثِ ( الحديبية ) وكيف كانت مقدمةً لفتح مكة ، ولنصرِ الله المبين ...

ثم شارفتنا مكة ! واقتربنا من بئر ( طُوى ) الذي نزل به رسول الله ﷺ وهو ماضٍ لفتح مكة ، فنزلنا هناك ، وألْمَمنا به إلمامةً ، ثم دخلنا (مكةَ) مُمْسِين ! فلم يكن شيء أملكَ للمشاعر ، ولا أقوى سلطاناً على النفس من المضي الى الحرم المكي ! ومشاهدة الكعبة ، ملاذِ العائذ وأمنِ الخائف ، وقبلةِ الملايين من المسلمين ، ومهوى أفئدةِ الموحدين ...

***

لا إلَه الاَ الله ، الله اكبر ، ها هو المسجد ! وها هي الكعبة ! دعني أيها المُطَوفّ ، مشغولاً بنفسي ، مأخوذاً برهبي ، مأنوساً بربيّ ! دعني ، لا تُلَقِّني هذه الكلمات التي تضيق عنها المعاني ، والتي هي مظاهر لا حقائق ، فانما انا مُستَشِفٌ من المعاني فوقَ ما تحدده الألفاظ ! طُفتُ . ثم سعيتُ ... ودعوتُ ! وناجيتُ ! ولا يتسع المجال ، إلاَّ لوصف مشهدٍ واحدٍ من المشاهد الجَّمة ، التي عَرتني فيها حالةٌ فريدة ، لا أكاد أُمِرُها بخاطري حتى تعاودني هزة من الشعور الرُّوحي العميق ...

دُعينا للمشاركة في غَسل الكعبة ، وجلالةُ الملك السعودي يتقدمنا في ذلك . فما أبهرَ المَنْظَر وما أروع المشهد . وهل تقوى أن تحملنا أقدامُنا هذه الخاطئة الى حيث الطهر الأبدي ، والقداسة السرمدية ؟ !

لعلّ الله قَبِلَ دعاءنا ، وَغسَل حَوْبَتَنَا ، قبل أن يدعَونا الى الدخول في هذا القدس الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين ...

صَعِدنا سلم الكعبة والقلوبُ واجفةٌ ، والرّهب يملأ شِعاب النفس ، وما كدتُ أرى الملك ، ( يُشمّر ) عن ساقه ، يحمل المِكنسة ، ويتبعه اميرُ الحج المصريّ ومرافقوه ، والكل جَادٌ بمكنسته متنقلٌ في جوف الكعبة ، وبين أركانها ، وَماءُ الورد يجري طهوراً ، ورشاشُهُ يُتَلَقّى بركةً وسعادةً وذخيرةً ويُمناً ...

قلتُ وَما كنت أحسب أن احداً يسمعني : — لا إلٰه الاّ أنتَ وحدك لا شريك لك ! هنا يتجلّى ذُلُّ العبودية ، وعظمةُ المعبود ! هنا يقوم بخدمة بيت الله ملوكُ الارض ، وعظماءُ الأمم ، وقد عَنَتْ وجوهُهم للحيّ القيوم ، فياله من مشهد يقذف بالغرور الانساني ، ويسمو بالنفس الى الأفق الأعلى ! وتتجلّى عنده حقيقةُ الآدمي ، وإن علا قدره ، وعظم شأنه ، فانّ ناصيته بيد الله الواحد الديان ...

وَسِمَعَني—جلالة الملك — فوقف ، وقال : اسمعْ يا بُنيّ : — واللهِ ما انا ، ولا أبنائي ولا أحفادي إذا لم يقبلْ الله حجهم ، ويرحمْ ضعفهم ، بأعزّ ولا بأكرَمَ من رجلٍ حاجٍّ مجهولٍ لا يعرفه أحد ، أخلَص عبادتَه لله ، فقبِلَ الله عبادته ! ثم طَفِرت دموعُ عينيه ، على مشهدٍ من الحاضرين .

***

هنا أدركتنا جميعاً رقةُ ورهبة ، وهتفنا ( الله أحكمُ الحَاكمين ) .

## من وحي الحج ومن إلهام الزيارة

# ٢

قدّمنا من قبلُ أن الحاجّ ، في كل مشهد، وفي كل طريق، ولدى كل منعطف، وعندَ كلّ أثر وأمامَ كل مَنسكٍ ، يشعر بمصادر القوة الروحية ومنابع الفيض الإلهـي . ثم يدرك أنه قد أخذ يتفهم حقائق الوجود ، وراح يتكشف أمامه غطاء الأوهام ، فـاذا البصيرةُ والبصر تدرك وترى الأمور كما هي لا لبس ولا غرور عندها !

هناك تناجيك أقدسُ الذكريات فتصبّ في وعيك اليقينَ صبّاً ، وتشيع من حولك الطمأنينة رويداً رويداً .. ثم تسلم نفسك الى الفكر في أغوار الزمن حيث ترى صور التاريخ حيةً ، وترى شخوص الأنبياء والصحابة والتـابعين والشهداء . تراهم رأي العين يضربون في ارض الجزيرة يبتغون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . يصارعون الباطل والمبطلين وقد علاهم جلال الحق. وحفتهم سكينة الله حتى لتهتز الدنيا وهم ثابتون وتطير الأفئدة وهم هادئون وتزلزل الاجيال وهم راسخون وتتجمع قُوى الشر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وهم مطمئنون الى وعـد الله ، واثقون من وعيد الله ! وكل عزائهم اذا اظلمت الدنيا وفدحت الخطوب : «لا تحزن ان الله معنا» .

لا تزال هذه الذكريات للرحلة المقدسة تزدحم في خاطري ، وكلهـا ذو أثر

عميق . وقد حاولت أن أرتبها زماناً فأعجلني بعضها عـــن بعض . وهل أنا مستطيع الآن أن ارجىء ما أوحاه إلي يوم عرفات ! وجوّ عرفـــات وأفق عرفات ! والاصداء التي تتجاوب بها الفيافي والجبال عشية عرفات . اللهم لا . فانها لذكرى تهز وجودي هزاً وتعيدني الآن كما كنتُ واقفـــاً لساعتي ولحظتي وبرهتي .

في الساعة التي اخذت الشمس تنحدر الى مغربها عشية عرفات وقد انعكست اشعتها على ما هو قبالتي ، من الصخرات الجاثمة ، جثوم الاقدار من وراء الغيب ، فأرسلتْ الأشعة الغاربة المتضعضعة ألواناً وضاءة ، فيها رفق وحَدَب ، بعد أن تكسرت حِدتها ، وذهبت مع الظهيرة وقدُتها .

فأيّ وحي أوحته اليّ تلك الأشعة المنحدرة وراء آفاق عرفات ؟ انهـــا لتؤذن الحجيج ، وتؤذن الدنيـــا بأن شمسَ اليوم او شمسَ الكون آفلةٌ بعد بزوغ ، وانها متوارية بعد بروز ، وان كل حياة فالى انتهاء ، وكل جذوة فالى رماد ، وكل حيّ فإلى فناء ، ويبقى وجه ربك ذو الاجلال والاكرام .

وتنبهت الى وجودي ، وارسلت بصري ، فاذا الحجيج قد انتشروا فوق الصخرات ، وفوق الهضاب ، وفي رؤوس الجبل ، واذا الجند يقفون أمـــام السيول المندفعـــة من الناس ، يمنعونهم ان يصعدوا الى قمـــة عرفات ، والناس يدافعون الجند ، ويغافلونهم ليسلكوا الى ذروة عرفات سبيلاً ، ثم تتـــاح لهم الفرصة ، فيثبون الى فوق ، ثم الى فوق ، ثم الى الرأس الناتئة من جبل عرفات . ويتحول الجبل ، ومـــا يحيط به من سفوح ، الى جبـــل كله آدميون ، تلاصقت اجسامهم ، وتشابهت مظاهرهم ، بل تشابهت قلوبهم .

نعم لكأني اشهد الآن الوفـــاً يتبعها الوف ، في صفوف من وراء صفوف ، والكل في لباس واحد ، وزي متشابه ، قـــد تكشف الحق ، امام البصائر والابصار عن ضعف الانسان وغروره ، وعن قدره اذا سما ، وعن وزنـــه

اذا لها .

هذا المشهد الذي يجتمع فيه من العديد ما لا يجتمع لمكان آخر ، في وقت واحد ، في اللباس الذي يكاد يبرز المرء عارياً، حافياً ، لا تمييز فيه بين الصغير والكبير ، ولا بين المشهور والمغمور .

هناك تبدو أقدس صور المساواة ، بل أصدق حقيقة المساواة ، مساواة بين الخلق كما يراهم خالقهم ، فلا شارة ولا علامة ولا انساب بينهم ، ولا مواضعات الحياة تفرقهم . هذا المشهد الذي يبدو في بساطة ، ويلوح في سذاجة ، قد انطوى على قلوب عامرة بالايمان ، جياشة بصدق اليقين ، ومن وراء الضلوع أجيج من الزفرات ، ولهيب من الانات والحسرات ، لكل واحد من الواقفين شأنٌ يغنيه ، ورجاءٌ من ربه يرتجيه ، فأبصارهم جميعاً شاخصةٌ الى السماء ، وايديهم مبسوطةٌ بالدعاء ، وقلوبهم وِجلةٌ ، إنهم الى ربهم راجعون .

طاعة خالصة لله ، ونجوى صادقة تفيض بها الوجوه ، واطراحٌ ونسيانٌ للمشاغل الدنيا ، فما المالُ ولا الجاهُ ولا السيطرةُ ولا السلطانُ ، ولا الشهرة ولا النفوذ بنافعة ولابشافعة في هذا الموقف،ولا في تلك اللحظة ، وانما ينفع ويجدي إسلام النفس لله القائم على كل نفسٍ بما كسبت ، وعلامةُ ذلك أن تحِبَّ لله ، وان تبغُضَ لله ، وأن تعمل العمل لله . وان تُشْعر قلبك الرحمة بعباد الله ، والرقة على خلق الله .

هناك سَمَتْ نفسي الى أعلى من الأفق الذي يحيط بي ، وراح طرفي يحار بين أقطار السماء ، وتمثلت ملايين المسلمين الذين وقفوا هذا الموقف في غضون السنين، فصوروا الوحدةَ في اقدس معانيها ، والتعاونَ في أجل مظاهره ، والإخاء في أبهر ألوانه ، وسرائر الناس وقلوبهم قد صفتْ وطهرتْ ، فلا حقد ولا حسد ، ولا غش ولا خداع ، ولا تكلف ولا رياء .

وناجيت نفسي : ليت المسلمين من ملايين الحجيج يوم يعودون الى ديارهم، ويضطربون في شؤون الحياة ، يبقى لهم من هذا الموقف وحُيه وهواتفه ، ليتهم يلحظون هذا السمو وتلك الفضائل ، ويستعيدون هذا الادراك الصادق للوحدة الاسلامية ، بل الوحدة الانسانية .

إذن . لما وقف امام وحدة المسلمين عائق ، ولا استهان بهم مستهين ، ولا قضى عليهم قاض وهم غُيَّبٌ لا يشهدون .

إن المسلمين في أقطار الدنيا يعدون بمئات الملايين ، وليس ينقصهم الا الروح الذي سادهم في عرفة ، يسودهم إذ يتقلبون في البلاد ، وإذ يعودون الى الديار .

وبينما أنا أسعى بين الصفا والمروة بعد طواف الإفاضة ، صبيحة يوم العيد ، بعد يوم الوقفة بعرفات،ولا تزال ذكرياتها وسوانحها ماثلة في خاطري ، والسعي له ذكريات وتوجهات لرب الكون ، أن يفتح أبواب الرحمة لعباده البائسين ، كما فتحها من قبل «لهـا جر » ولولدها «اسماعيل» . وهي تسعى كما نسعى ، وتبتهل كما نبتهل وترجو كما نرجو ، ورحمة الله وسعتْ كل شيء .

فبينما أنا كذلك ، إذ شاهدت جمعاً ينعطفون بالقرب من(الصفا) إلى منحنى حارة الباب ، وأمامهم (الدليل) يشير إلى مكان دار عتيقة اجتمع لها من كرائم الذكريات ، ما يثير قداسة العقائد ، ويهوِّن آلام الدنيا في سبيلها .

فتعقبت الجمع بعد انتهاء أشواط السعي ، واذا أنا أمـام (دار الارقم) التي اشترتها بعدُ (الخيزران) زوج المهدي العباسى ، وأم هرون وموسى الخليفتين ، اشترتها ، ثم عنيتْ بها ، إبقاءً على أمجد ذكرى ، وأعز أثر .

وقفتُ هناك ، وأخذتُ أقرأ ما هو منقوشٌ على حجرٍ مرفوع قرأت : — «في بيوتٍ أذِنَ الله أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمه ، يسبِّح له فيهـا بالغدوِّ

والآصالِ رجـــالٌ » .

وفي سطر آخر كتِب : (هذا مختبأ رسول الله ، ودار الخيزران ، وفيها مبدأ الاسلام ) .

أخذتني روعةٌ ، وسرت في نفسي رهبةٌ ، وجعلتُ أُناجي نفسي : — من هنا بدأت العبادة الخالصة لله! ومن هنا انبعث القبس الذي أضاء الدنيا!. يا لله ! كم من ليلة دخل هذا المكان سيد البشر ﷺ يمشي على حذرٍ ، فيجتمع بالقليلين من المؤمنين ، يصلي بهم ، ويعلمهم القرآن والحكمة ويزكيهم . وقريش تتبعهم بالأذى . وتتحسس منهم ومن دينهم ! ثم تمثلتُ (عمر بن الخطـــاب) وهو في جاهليته قد صمم وعزم على أن يغتال صاحبَ الدعوة ﷺ ، بعدَ أن سفّه دين العرب ، وسخّف عبادة الأصنام ، وفرّق أمر قريش .

تمثلت ( عمر ) وقد سرتْ في نفسه حمية الجاهلية ، فجاء الى هـــذه الدار ليقتل محمداً في ليلة ، ما كان أشأمها ، لا بل مـــا كان أيمنها ، فيلقى في طريقه ( نُعيم بن عبدالله ) فيظهره عمرُ على ما انتواه ، فيقول له نعيم : — لقد غرتك نفسك يا عمر !! أتظن أن بني عبد مناف تاركوك تمشي على الارض ، وقد قتلتَ محمداً ؟؟ إرجعْ ، يا عمر ، وأصلحْ بيتك وآلك ، ألم يبلغك ، يا عمر أن أختك فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد قـد أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ؟ ويغتاظ عمر ، وتشتد حميّتهُ ، فيتحول عن هذه الدار ( دار الأرقم ) الى دار أخته ، ودارُ أخته ساعتئذٍ ، عامرةٌ بقراءة القرآن ، زاخرةٌ باليقين والايمان. ويندفع هذا الرجل ، عمرُ الشديد القوي، ويصيح: ما هذه الهينمة التي أسمع ؟؟ ثم يشرع يبطش بزوج اخته ، فتتدخل اخته دفاعاً عن زوجها المسلم ، فيشجها عمر شجاً يتقطر له دمها الزكي الطاهر ، وتضطرب الدار ، وينـــدم عمر ! ثم يندم ! وينتهي في تلك اللحظة كل ما كان بينه وبين الشّرك! فيطلب الصحيفة التي كانوا يقرأونها ، ثم يقرأها ويعيها ، ويصغي الى ما فيها ، وفيها :

« طهٰ ،ما أنزلنا عَلَيْكَ القرآنَ لِتَشقىٰ، إلاّ تَذْكِرةً لِمَنْ يخشىٰ،

تنزيلاً مِمّنْ خلَقَ الارضَ والسموات العُلىٰ ، أَلرّحمٰنُ على العرش اسْتَوىٰ » .

فيسرع عمر ، يطلب محمداً ، ﷺ ، بهذه الدار ( دار الارقم ) لا ليقتله ، بل ليعلن إسلامه به ، وبما جاء به !

وأتمثلُ اللحظةَ الرهيبةَ ، إذ قرع ( عمرُ ) باب هـــذه الدار على محمدٍ وصحبه ، وأذكرُ ما خطَرَ لهم ساعتها من قوة عمر وحميّته ، وأنه قد ينتوي امراً جللاً ، فما هو إلاّ أن يَبرُز له محمدٌ ﷺ ، ويأخذ بأطراف ردائـه ، ثم يَجبذُه جبذةً شديدةً ، ويقول له : — ما جاء بك هنا يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أراكَ تنتهي عن محاربة دين الله، حتى يُنْزلَ اللهُ بك قارعة ؟ .

وتسري رقةُ العقيدة في كيـــان عمر فيتطامن ، وتهتز نفسُه اهتزازاً رفيقاً ، ويقول : — إنما جئتُ مؤمناً بالله وبرسوله وبما جئتَ به من عند الله . ويكبّرُ رسول الله ﷺ ، ويكبّر المؤمنون ، وتهتز مكة شعابُها وجبالُهـــا بإسلام عمر ، ويَعتزُّ به الاسلام ...

هذه هي الدار التي أراها وتسعد نفسي بذكراها ، الا عمرَّك الله يا دار !

## من وحي الحج ، ومن إلهام الزيارة

# ٣

ما برح إلهامُ الزيارة يتدافع ، ومـــا زالت دراساتنا تتسع ، فهي ترجيع لما تجاوبت به النفس عندما صعدت جبل النور ، واضطجعت في غار حراء .

وغار حراء ، عَلم دونه كل الاعلام ، واسم يبعث الصحف الأولى من تاريخ الوحي المحمدي . لهذا ، كنت ارى كل حاج يعود ، ويقص علينا من مشاهـد الحج ، وآثارِ الارض المقدسة ، فلا يشغلني ، ولا يأخـذ بأصغري واكبري إلا ان أسأله عن ( حراء ) ، وعن جبل النور ، اسائل كل راجع من الحج : هـــل صعدتَ جبل النور ؟ هل رأيت حراء ؟ هـل تمليت من المكان الأقدس ، الذي انبثق عنده نور الحق ، فأضاءت له الدنيا ، واشرق منه الوجود ؟؟ فكان دائماً مرجع سؤالي ، إن المرتقى لصعب ، وان القمة لسامقةٌ في السماء ، وان النَّفَس يتقطع دون بلوغ القمة ، وانه لا يتاح ارتقاؤه الا لذوي القوة ، أولى العزم . ثم يقول العائدون من رحلة الحج في عبارات نادمة آسفة : لم استطع صعود الجبل ، لما يتحدث به المتحدثون من وعورة الطريق ، وصعوبة المرتقى .

وكنت أعجب كيف تُقعد هذه الأسباب أيَّ مسلم مستطيع — ولو بجَهْد ومشقة — ان يصعد فيرى المكان الذي اختـــاره الله ، كما اختار رسوله لبـني الانسان — والله أعلم حيث يجعل رسالته — اختاره الله مكاناً ، من بين أماكن

الدنيا ، وبقعة من كل بقاع العالم ليبدأ منه ، أول خطاب من الله لنبيه، ويُفتتح فيه الفصل الاول من كتاب الوحي الإلهي ، وحي الله على النفس المطهرة الزكية ، النفس المحمدية .

من أجل هذا كان شغليَ الشاغل ، وأملي المرتجى ، وحديثُ نفسي ، وواحةُ حسي ، أن أصعد جبل النور ، وأن أشهد غار حراء ، فلما كان يومُ زيارتنا لقصر الملك ، تلك الزيارة الرسمية غداة حلولنا مكة المشرفة ، ذهبنا الى ظاهر مكة حيث الأبطح ، ثم انعطفنا الى ناحية القصر الملكي ، فسألت السائق : ما هذا الجبل السامق ؟ فقال : هو جبل النور ، وفيه غار حراء . فما كدت اسمع ذلك ، حتى طلبت اليه ان يهدىءَ السير ، أو يقفَ السيارة ، حتى أرى هذا الجبل بعيني وبقلبي ، ولو من بعيد ...

ثم انتهت الزيارة ، وعدنا ، فرجوت السائق وقفة اخرى ، ومن ذلك أصبح لا يقر لي قرار ، أو أظفرَ بصعود جبل النور ، وأرى حراء .

وفي مساء اليوم التالي كنت بالتكية المصرية . وفكرةُ صعود الجبل تملك عليّ نفسي ، فبسطها ورجوتها ، ورأيت من ناظر التكية ومهندسها رغبةً ملحة في اصطحابي ، ثم اخذ يهوّن من الأمر كل صعب .

فتواعدنا فجرَ الغد لنصليَ الصلاة الأولى بالحرم المكي ، ثم نجتمعَ بالتكية قُبالة الحرم ، ومن هناك نسير — على بركة الله — قبيل الشمس . حتى لا تحرقنا وقدتها ، واذا هي ادركتنا ففي حبوتها الأولى ، قبل أن تتوسط السماء .

تم كل شيء . وصحَبنا رفقةٌ أبرار ، فيهم توثب ، ولهم عزم شديد . فلما قاربنا سفح الجبلِ ، جبلِ النور ، نظرنا الى الجبل فاستهونّا مشقة الصعود ، بل عجبنا كيف يُخذّل الناس بعضهم بعضاً عن ارتقاء الجبل ، فلما جاوزنا الدقائق الأولى ، ونحن نصعد في نشاط وعزم ، ادركنا اولَ التعب ، وعرفنا أن الامر

ليس من السهولة بحيث قدرنا . لكن الغاية عظيمة ، والهدفَ سام ، والتراجع خور . فأخذنا نَشُد من أمرنا ، ونستجمع من قوانا ، لكن الصخورَ غيرُ معبدات ، والمساقط راسية . وتبينا أننا لا نزال في ربع الطريق ، وأخذَنا تعب ، ونال منا الجَهْد . وشكا احدنا للآخرين خشية الجهد ان يعاوده مرض ملازم ، فوقفنا جميعاً ، وأقسمنا ليبقين حيث هو ، أو ليعودَنَّ أدراجه ، بعد ان طيبنا خاطره ، بأن الله شهيد على ما جَهَد ، وأن نية المرء خير من عمله . واننا اذا اسْعَدَنا الحظ ببلوغ القمة ، سوف نذكره هناك ذكرنا لأنفسنا ولآلنا ، قلنا ذلك له في رجاء وشفق . وكنا نخشى عناده وصلابته . فهو رجل قوي النفس . صليب المكسر . وما زلنا به حتى رضي البقاء كارهاً آسفاً .

اخذنا نتسلق الجبل في مشقة تزداد ازدياداً ، وكلما قطعنا مرحلة اشتدت ضربات القلب . وتتابعت الانفاس . وكثر الجلوس . بل الاستلقاء إعياءً وتخاذلاً . لكنّ بعض رفاقنا جعل يهوّن من باقي المراحل ويعللنا باننا جاوزنا ( النصف ) . النصف فقط . كل هذه الشدائد ولا نزال في نصف الطريق .

نظر بعضنا الى بعض . هل يراكم من احد ؟ ؟ حتى لقد صمم الكثير على العودة . أو البقاءِ حيث وصل . فليست العودةُ بأروح من تركها . وشهدنا هولَ ما نحن قادمون عليه . وتَصبب العرق من جباهنا بل صرنا غرقى فيما تنضحه الأجسام من ذلك العرق . وكان الرفيق القائد يستحثني . ويتابع السؤال عني . وكنت أحب أن أبقى ساكناً فلا أتكلم . لأن الحديث يشق عليّ . ويضاعف من تلاحق أنفاسي . واشهد لقد هممت بعد جولة أو جولتين ان انقطع عن الرفاق . وان الحق بصاحبنا الذي تخلف لمرضه . لكني وجدت باعثاً خفياً قوياً يطارد هذا الفكر ، ويدفع بي أن اصعد ثم اصعد . وأجهد نفسك . ثم أجهدها ، فالرجوع خيبةٌ في الامل . وانها لمريرة . وعند القمة الراحة الكبرى . وعندها تنعم نعيم الظفر . وتدرك معنى سيطرة النفس على اعياء الجسم . واذا طالعك المكان الاقدس . عند القمة . ذهبت كل المشقات .

بل ربمّا هانت عليك كل أحداث الدنيا . ووجدت الطمأنينة النافرة . والسعادة الروحية المنشودة . ونُفِثَ في روعي ما يردده جديث الناس . أن كلّ صاعد ( حراء ) واجدٌ عوناً من الله . وتيسيراً من لدنه . وانه بالغ مأمنه ان شاء الله .

أخذت اصعد بل أزحف زحفاً متيامناً ومتياسراً ، اجلس طوراً ، واستلقي أطواراً ، حتى بلغت ( القمة ) وقد مضى من الزمان ساعةٌ ونصفُ الساعة .

الله اكبر . بلغت أمنيتي ، وأدركت من الخير إربي ، فها أنا فوق القمة ، التي التي لم تغيرها القرون ، ولم تحل على اختلاف الليل والنهار . بلى ، ان كل أثر قد تغير ، او اندثر ، وكلّ شيء قد تغير ، لكن تلك القمة ما زالت ، كما كانت ، هي هي ، قمة حراء ، كما كانت منذ قرون خمسة عشر ، كما كانت يوم صعدها ، رسول الله ﷺ ، كما كانت ساعةَ الوحي ، ساعة الفصل في تاريخ الانسانية ، ساعة ظهر الملك للرسول الاكرم ، وخاطبه بكلام الله حقاً . انني اقف الآن ، في المكان الخالد أثراً ، الباقي على الدنيا ذكراً عطراً ، مكان الوحي الاول ، ومُجتلى الانوار الربانية .

قمة جبل النور تبدو سطحاً في نحو الاربعين ذراعاً مربعة ، ومن هناك تترامى أقطار الافق ، فيرى الناظر الجبال المحيطة بمكة ، ويرى المسجد الحرام ويرى الكعبه المشرفة ، ويرى أسراب الإبل تدِبُّ كأنما هي النمل ، من بعد المدى ، وسموق القمة ، ويرى السفوحَ والآكام والدروب والشعابَ كل ذلك تُخيِّم عليه القبة الزرقاء ، والسكون الشامل الرهيب ، الذي يكاد يسمعك خفقانَ قلبك وحديث نفسك . منظر ساحر عجيب ، يُغرق الفكر في التأملات ويرده الى القرون الخاليات ، الى عصر النبوات . اذ نحن في حضرة محمد رسول الله وهو يقف هذا الموقف ، ينظر الى السماء فوقه كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت ، والى الابل كيف خلقت ؟ ثم يفكر

في خلق السموات والارض وما خلق الله من شيء . كل هـذه المشاهد الصريحة الواضحة لتوحي بجلال الوجود الأعلى الذي لا يحـد ، كما توحي بضعف الوجود الانساني الفاني .

حدثت نفسي من فوق القمة ، اذا كنا اليوم قد قـاسينا النصب والتعب في الصعود أشكالاً والواناً ، وتقلب علينا الأمل واليأس ضروباً وأطواراً ، وكادت نفوسنا تزهق كلالةً ورَهقاً ، وضعفاً ووهناً ، فكيف كان عليه الصلاة والسلام يصعد مرات ومرات ، ويختلي هنا ليلات بعد ليلات وهو وحيد فريد ، يا لله ما أصعب المرتقى وما أبعد الغاية وما أعز الوصول الى هذا المكان . ولكن ، أليس محمد رسول الله يخاطبه ربه (فاصبر كما صبر أولو العزم) أليس قد اجتمع له مـا تفرق في الانسانية من شدة المنة وقوة الأيد ، ومنتهى الاحتمال .

الا ان منازل الابرار ، لا تدرك الا بقوة ومضاء عزم ، ولعمري ليس أوعر من ضبط النفس ؛ وجمع القوى لاجتياز محن الحيـــاة ، حتى يبلغ الانسان قمة السيطرة على ما في الحياة من ضعف وخور وعبث ولهو . وحتى تتفتح نفسه عن كنوز من السعادة الروحية التي لا تحول ولا تندثر .

هذه القمة التي أوحت الينا ما أوحت . هي قمة جبل النور . اما الغار غار حراء . فلا بد للوصول اليه من ان ننحدر بعد ذلك عن تلك القمة الى الجهـــة المقابلة لمكان صعودنا . وقد انحدرنا نحو عشرين ذراعاً ومررنا في انحدارنا نحو الغار بحجرين عظيمين من الصخر يتقابلان معاً حتى ليـــكاد يتم تلاصقهما ولا يمكن الوصول الى (الغار) الا بالمرور من بينهما . فكيف السبيل اذن الى الغار ؟ قـال رفاقنا : مرّ..مرّ..فكلنا مرّ . فأقدمنا وتوكلنا على الله . ومرق جسمي من بين الصخرتين وانا اعجب كيف اتيح لي ذلك وأكاد انكر مـا ارى وما أحس . وعندئذ وجدتني وجهاً لوجه أمام باب الغار ، غار حراء .

الله اكبر . أهذا هو الغار الذي أوى اليـه محمدٌ رسول الله ﷺ ليخلو الى

نفسه مأنوساً بما يلهمه اياه ربه . مفكراً في هداية قومه . باحثاً عن الحق . الحق الذي يسعد الانسانية المعذبة ببطش الطواغيت الذليلة بعبادة الاوثان .

ايها الغار ، غارُ حراء . كم من ليلة كان الظلام يخيم على الآفاق فيحتلك الليل وتنسد فجاج الارض ، الا انت أيها الغار . فلقد كان يسطع النور الوهاج من قلب ساكنك هذا النبيِّ الكريم ، فتمتلىء أرجاؤك نوراً وهدى وأملاً ورجاء .

ان الغار مكان لا يتسع الا لواحد يضطجع فيه . فاذا وقف وجعل الباب خلفه كان متجهاً في ذلك الوضع الى الكعبة آخذاً سمته الى البيت الحرام . فما أعجب التقدير وما أبلغ التصاريف .

دخلت — الغار — خائفاً اترقب . حذِراً أترهب . واضطجعت فيه ضجعة انستني كل شأن من شؤون الدنيا . ورحت استروح عندها السعادة والرضا والغبطة والأمن والراحة . ثم اخذتني هزة أذهلتنى عن نفسي . فتمثل لي ان جبريل واقف أمامي في هالة من النور الأعلى . وانه قد ضم محمداً رسول الله ﷺ حتى بلغ منه الجَهد . وأنه اسمعه صوته الملائكي يقول له عن الله (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الاكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم) .

ثم أخذتني روعة . وعرتني رهبة . فقدرت ان هذا الجبل الذي نالني في ارتقائه ما نالني من نصب وتعب . قدرت أنه الساعة يهتز ويهبط من خشية الله .

ألا من شاء أن يجد الحقّ ناصعاً ، والروح صافياً ، فليكن له في بعض الأوقات عزلة عن الناس ، يرسل فيها تأملاته ، ويطلق فيها نظراته ، تاركاً عجيج الدنيا ، وصَخَب الحياة . ان في ذلك لهدى ونوراً ، وشفاء لما في الصدور .

# من وحي الحج ومن إلهام الزيارة

## ٤

هذا هو الحديث الرابع من وحي الحج ، ومن الهام الزيارة . انقل اليكم فيه صورة نفسي . يوم ازمعنا الرحيل عن مكة الى المدينة ، بعد ان قضينا مناسكنا ، وذقنا حلاوة الامن والسلام والرضا في جوار بيت ربنا . فما راعنا الا تحديد موعد السفر . وان ليس للانسان بعد اليوم هـــذا الانس الروحي . وذلك النعيم النفسي . الذي يبعثه اقدس مكان . واعز مقام .

لم يبق امامنا من المناسك الا طواف الوداع . والوداع مُرٌ أليم فكيف وأنت تودع مهوى الافئدة . تودع البيت الحرام . وتلقي نظرة اخيرة على اركان الكعبة . وعلى مقام ابراهيم . وتودع رشفات سائغات من ماء زمزم . يقدمهـا لك ( الاغا ) في طست يقطر نظافة وصفاء ، وعليه ثيابه ناصعة بيضاء. تحدثك ان النظافة من الايمان .

وكيف وانت تودع مجلسك ومُقامك قُبالة باب الكعبـــة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، تستقبل الرحمات . وتستنزل الرضوان . مأخوذاً بجـــلال المكان . وعظمة الايمان .

كيف وانت تودع سماع التلاوة الندية العذبة ، التي يرتلها امام الحرم في صلاة الفجر . ان قرآن الفجر كان مشهوداً. تشهده الملائكة . فما اروع التجويد، وما

أحلى النبرات . تودع ذلك كله ، بل تودّع راحة نفسك ، وسكون حسك ، ويقظة روحك .

لقد تركت رفاقي يختبرون السيارات ، ويختارون لها السائقين . من مهرة النجديين الذين حذقوا الصحراء مداخلها ومخارجها. تركت ذلك وانفلتّ وحدي الى الحرم لأطوف الوداع . ثم اخذت اجلس في كل مكان جلست فيه من قبل ، وأقف كل موقف كنت استروح فيه ، وألمس كل جانب كنت ألمسه ، ثم لاحت مني انتباهة الى حمـام الحِمىٰ الذي أنِستُ به ، وأمن لجواري ، فودِدتُ لو اقتربَ مني فمسحت بيدي جناحيه وناجيتُه نجواي الدائمة ، تحناناً الى البيت العتيـق . .

وأعجلني رفاقي ، فغادرت الكعبة ، وأنا انظر اليهـا ، وامشي القهقرى وَلَـهاً. بها اذ هي رمز التوحيد، وعنوان الحق الواحد في هذا الوجود . وبلغت باب الوداع ، وتخطيته ، والوحشة تحُز في قلبي حزاً لولا أن طافت بنفسي — من رحمة الله — في تلك اللحظة، أطيافُ المدينة المنورة، فأسلمتني الى نوازع الشوق المُلحّ نحو ( طيبة ) مثوى سيد المرسلين .

وبينا انا في خواطري هذه اذْ لا تزال الكعبة ماثلة أمـامي ، واذ لا يزال الطائفون والعـابدون والضارعون والمبتهلون ملء سمعي وبصري — أبصرت بالسيارات أمام باب الوداع ، وفي لحظة اخذت تنسات انسياباً ، ينعطف امامها الطريق ثم يستقيم، واذا نحن في واد هابط على جانبيه جبال ذات الوان متباينة، كأنما لونتها يد الصانع فتنة للناظرين ، فما هو الا أن يحضُرَكَ قول الله تعالى : (ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود،ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك) وحدثت نفسي ساعتئذ ، او يستطيع المفسرون لكتاب الله ان يصوروا ألوان تلك الجبال تصويراً معبراً من قبل ان يروها رأي العين ، حتى يستطيعوا ان ينقلوا لأذهان الناس ، أي إبداع فيهـا ، وأيّ بهْرٍ

يملك مشاهديها !

ثم انقطع طريق الجبال ، وأخذنا طريقاً سهلاً بساحل البحر الاحمر بعد جُدة ، فاذا البحر عن يسارنا واذا هذه المومأة المترامية عن يميننا ، والسائقون للسيارات يتسابقون في شدة العدو ، واطلاق العنان للقيادة ، حتى بلغنا (رابغاً) في العِشاء. فلما بلغناها يأبى رفاقنا الا أن نمعن في السير ، وأجزع انا لهذا الرأي اذْ عانيت من سرعة العدو مشقة ، كما عانيت من وعورة الطريق مشقات ، فصحت في رفاقي : كيف لا نبيت برابغ ؟ أليست هي (الجحفة) والجحفة مشهورة في التاريخ الاسلامي . فمن الجحفة أخذ سيدنا رسول الله ﷺ طريقه الى مكة عام الفتح ، فكيف لا نتنفس في هذا الجو ، ونعيش ليلة في ذلك الأفق ، وتطلع علينا نجومه ، كما كانت تطلع عليه ﷺ وننظر اليها كما نظر اليها !

ورضي الرفاق بعد لأيٍ وبتنا في الخيام ليلةً ما كان أبركها وأيمنها ، فقد أخذنا قسطاً من الراحة ، ولذ لنا طعام رابغ ، او طعام الجحفة ، وهو سمك يؤخذ من يد الصائد الى يد الطاهي . ثم استأنفنا السفر عند الاسفار ، فاذا نحن نسلك طريقاً وعراً غاية الوعورة ، فمرة نعلو شرَقاً من الهضاب ، او سفوحاً من الجبال ، ومرة ننحدر في هوة من الهوات ، وطوراً تنفُضنا السيارة نفضاً عنيفاً ، فنشفق ان يتعطل المحرك او يتحطم العجل ، وكلما شاهدنا عن اليمين وعن الشمال سياراتٍ عاجزةً جانحةً ، وأبصرنا عمالها حيارى ، ضرعنا الى الله : اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت .

وسولت نفس أحد الرفقاء له أن يقول : كيف يشكو الناس من قسوة الطريق ، ومن عطب السيارات وها نحن قاربنا (المسيجيد) وهي آخر مرحلة ، ليس بعدها الا المدينة . وها هي سيارتنا بفضل السائق الماهر تتغلب على وعثاء السفر ، وتنساب بين الصخور فارهة سالمة . قال ذلك ، فما لبثنا غير بعيد حتى ترنحت السيارة ووقفت لساعتها فانقطعنا عن باقي السيارات وتفرقنا نلوذ باكناف

الجلاميد والصخور طالبين النجدة من ذوي النجدة .

واخذ السائق يحتال احتيالاً ، ووَجَم صاحباي .خشية الامساء ، واخذهما همّ وكرب . فقلت :يا صاحبيّ ، أفحسبتما أن نمضيَ في هذا الطريق ، على تلك السرعة الخاطفة ، فلا يستقر لنا بالصحراء قرار ، ولا نتعرف الى معالمها ، ولا نفقه وحيها . ولا ننزل فيها منزلاً . ولا يصيبنا في سبيل الله ظمأ ولا نصبٌ ولا مخمصة ؟

أوَ نرغب بأنفسنا ، عما رغبت فيه نفس سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو —عليه السلام — قطع هذا الطريق جيئة وذهوباً على ظهور الإبل ، اياماً ولياليَ ، مراحل ومنازل ، شعاباً وهضاباً و،الزمان غير موات، والاعداء بالمرصاد .وليس له — عليه السلام — ولأصحابه عند كل شدة ، ولدى كل إعصار ، الا الكلمة الشافية الواقية : ( لا تحزن ان الله معنا ) .

الا ما اعظم العبرة . وما ابلغ العظة من ذلك الطريق — طريق المدينة . انه لطريق لو تحدثت رماله وهضابه وجباله بما شهدت لانصتت الدنيا كلها . وتلفت العالم الى اروع ما عرف التاريخ من جلال الحق . وعزة الايمان .

بقينا ساعات اربع نتعاون تعاوناً صادقاً على علاج السيارة . ونطارد اليأس عن النفوس ، واذا نحن برجل يمشي على قدميه من اولئك الذين يحجون ويزورون مشاة حفاة ، لا يتبلغون الا بالكسرة من الخبز ، والجُرعة من الماء . وقف امامنا . وادرك ما نعانيه من جَهد . فهتف بنا قولوا : اللهم صلّ على محمد ما جاء الفرج بعد ان كاد العبد يقنط . فاخذنا نهتف هُتاف الرجل . ثم نعاون السائق . فما هو الا ان شاهدنا الامداد من الرفاق الذين وصلوا المدينة . وتفقدونا . ثم افتقدونا .

الله اكبر ، ولله الحمد. ها هي السيارة قد أصلحت . وها نحن نقطع الطريق

عدواً عدواً . فنبلغ جبلين عن يميننا وشمالنا صاعدين في السماء . والسيارة تحاول ان تبلغ مخرجاً من ذين الجبلين فلا تبلغ ذلك على شدة العدو . وانسياب السيارة . فسألت السائق : أيُّ جبال هذه ؟ فاجابني مبتسماً : انها جبال المُفْرِحات ، وانها هي المبشرات باقتراب المدينة . اقترابِ المدينة ! هنا استيقظ فينا كل احساس . وأُرْهِفَ منا كل شعور . واتصلت افكارنا بالمدينة المنورة اتصالاً . وراحت خواطرنا تسبح في لجة الزمان الناضر . ذكرت ساعتئذ — وما احيلى الادكار — يوم دخل ﷺ المدينة . فخرجت المدينة لاستقباله . وذكرته وهو يؤلف قلوب أنصاره من أهل المدينة . فيقول لهم : الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا أنتم برسول الله الى رحالكم ؟فوالذي نفسس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار . ولو سلك الناس شعباً ، وسلك الانصار شعباً لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار .

ذكرت ذلك — وذكرت انه عقب هذا الخطاب العاطف الحاني بكى الانصار حتى اخضلّت لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قَسماً وحظاً ، ثم دخلوا المدينة ، كما سندخلها الآن . ولاحت مني انتباهة . . ماذا بالقبة الخضراء ، تتراءى صاعدة في السماء ، فما هو الا أن يجِبَ القلب ، ويخفِقَ الصدر ، ويمعن النظر في أقطار القبة الشريفة مستعجلا الوقت ، متلهفاً على الوصول .

ثم نشرف على باب المدينة ، باب العنبرية . وينتشر في الجو عبق له أريج زكي . ويقول كل لصاحبه : الا تشَمُّ ما يتضوع به المكان ؟ فيقول الصاحب لصاحبه : انها رائحة الإذخِر ، هذا النبت الطيب الرائحة ، فهو ينتشر في هذا الوادي . ويقول الآخر : ان الامر لا يعدو سيطرة الوجدان على الحواس . أما انا فأشهد لقد شممت العرف الذكي وَفغَم أنفي هذا الطيب مهما أوّل المأولون وفسّر المفسرون .

ونبهنا السائق أنْ قد ألقت عصاها واستقر بها ، وقر عيناً بالوصول المسافر ،

وليشير بأن نستريح قليلاً او كثيراً . ثم نتهيأ للمثول في الحضرة المحمدية . الله اكبر ! أفي مثل هذا المقام يطرق النوم عيوننا او تطمئن الى الفراش جنوبنا . لا . والله . وانعطفنا الى التكية المصرية وهي رمز البر الذي لا ينقطع بدار الهجرة . انعطفنا هناك فاغتسلنا وبدلنا ثيابنا . وأبى لي وجداني في تلك اللحظة الا ان تكون هذه الثياب هي التي اقابل بها عظماء الدنيا وملوك الارض . ألست بعد لحظة سأفد على أكرم الخلق على الله وخاتم رسل الله . ثم أخذت طريقي الى المسجد النبوي الشريف وانا اردد ما كان يردده ﷺ عندما قدم المدينة : (رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) .

الله اكبر ! ما اروع وابهر . ها انا الساعة استقبل باب السلام فأخفف وقع قدمي حياء وكرامة . وأطرق ثم أغضى ذلة وخشوعاً . واذا كنت في هذه البرهة أقبل على الحجرة الشريفة ، وقد استضاءت روحي بقبس من ذلك النور الساطع، حتى لقد اشرقت من أمامي الارض بنور ربها. واني لأكاد اطير فرحاً لتحقق امنية تستشرف لها نفسي،ومع هذا فاني لأذكر ذنوبي فأكادخوفاً وهلعاً، ولكني اذكر أيضاً في تلك اللحظة قول الله تعالى :(ولوْ أَنَّهم إذ ظَلَموا أنفسهم جاءُوك فاستغفرُوا الله ، واستغفرَ لهمُ الرسولُ لوجدوا الله تواباً رحيماً). فها أنا ذا جاءٍ وها أنا ذا راجٍ . هذا شأني وأنا ادخل من باب السلام ، فما هو شأني وأنا قبالة الوجه الشريف الأسنى، لعلي أستطيع ان اصور ذلك في الفصل التالي .

★★★

# من وحي الحج ومن إلهام الزيارة

## ٥

حديثنا هذا يصف مثولنا في الحضرة النبوية المحمدية ، ووقوفنا قُبالةَ الرأس الشريف الذي أعلاه الله فوق الرؤوس ، وأمام الوجه السنيّ الوضاء الذي أفاض الله عليه من هيبته ، وألقى عليه من محبته . وأشهد ما كذب الفؤاد ما رأى ، وأشهد لقد رأيت في هذا المكان من آيات ربي الكبرى .

وقف حديثنا الماضي ، وأنا اتخطى باب السلام ، آخذٌ سمتي الى المقصورة المحمدية ، او الى حجرة عائشة ام المؤمنين ، تلك الحجرة القدسية ، التي اجتمع لها من الشرف والطهر والسمو ما صارت به أشرف بقعة ، وأعز مكان . وما اكاد اخطو نحو مثوى خاتم الانبياء، حتى يُشدّ بصري الى الركن الذي يقابلني من المقصورة المنيرة بنور الله ، والله نور السموات والارض، فلم أعد أشعر بشيء من حولي ، بل أكاد أذهل عن وجودي، وكلما اقتربت على مهل في رهبة وهيبة، تسمو خواطري ، وتذهب في آفاق بعيدة ، انتقل فيها الى عالم مليء بالأطياف المقدسة التي جعلت من هذه الارجاء مستقراً ومقاماً . أطياف الملائكة يغدون ويروحون . (تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر). وكأنني ارى الوفود من انحاء الجزيره . وكأني أرى الصحابة من المهاجرين والانصار يتجمعون جماعات ثم يستأذنون على رسول الله ﷺ ، وهو وراء حجراته وداخل بيوته . يستأذنون تأدباً بآداب القرآن : (ايا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان

يؤذن لكم ) . ثم يرتد الي وعيي وأثوب الى نفسي فأقف متسائلاً :

أو قد استأذنا ، وأذن لنا في دخول هذا الحرم الاقدس ، وهـــذا البيت الاطهر ؟ اللهم إنا نأتمر بأمرك ، ونقف ببابك وبابِ رسولك ، فاهّلنـا لتلك الرحاب ، وافتح اقفال قلوبنا بذكرك ، واشرح صدورنا بفيض منك ، وأنر بصائرنا بقبس من هداك : ( ان الهدى هدى الله ) .

ثم اتابع خَطوي ، فيكتنفني صديقان من أهل المدينة ، هذا عن يميني وهذا عن يساري ، يريدان معاونتي على تعرف ما حولي من محاريب ، واعمدة ، وآيات وكتابات ، فيتكلم احدهما فلا اسمع من حديثه شيئاً . ويضغط الثاني على ذراعي فلا أُحِس به . واذهب في عنان الفكر كرة اخرى ، اطوى القرون القهقرى ، واستقبل التاريخ الاسلامي ، وهو يملي عليَّ صحائفه الأولى ، التي اشرقت على الكون من هذا المكان ، وانبعثت في شتى الأرجاء من هذه البقعة المباركة .

البقعة المبـــاركة من حجرات الرسول ﷺ . فمهما تعددت ديار المسلمين ، وترامت آفاقهم ، وتنـــاءت اوطانهم ، واختلفت ألسنتهم وألوانهم ، كانت هذه البقعة الشريفة مهوى افئدتهم ، يجتمعون عندها على الايمان ، ويتآلفون لديها على الحق . ويتآخون في ظلالها ، كما تآخى سلفهم الصالح ( لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ) .

وتمر بخاطري صورة تاريخية مشرقة ، تعرفني باقدار الأنصار ، وتريني كيف عزت تربة المدينة على سيدنا محمد ﷺ فكان يرجو ان تكون مثواه ، وان يستقبل في جوها الرفيق الأعلى . وقد استجاب الله دعوته ، وأقر في مراقد العز رفاتَـه . نعم سرت بخاطري — وانا اخطو فوق هذا الثرى — صورة تاريخية ما أبهاها وأزهاها ، وأكرمها وأغلاها . تلك صورة سيدنا رسول الله ﷺ وهو جالس بعد فتح مكة بين المهاجرين والانصار مظفراً منصوراً . وقد وسع قريشاً

عفـوه ورحمته . وبرّه وحنانه .

فاخذ الانصار يتحدثون فيما بينهم ، فيما عسى ان يكون عليه الأمر بعد فتح مكة ، أترى يفضّل رسولُ الله ﷺ مكة على المدينة ، بعـد ان دانت له ، ونزلت على حكمه ، وفيها آله وذووه ؟ أترى شغله بمودة ذوي القربى يصرفه عن دار الهجرة ، ويحبب اليه وطنه الأول ؟ تحدث الانصار بذلك ، واشفقوا منه ، وتسامع به الناس ، وبلغ محمداً ﷺ ، فجمع الانصار ، وأسمعهم الكلمة الكريمة الرحيمة الرقيقة ، قـال لهم : — معاذ الله : «المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

أليس هذا الثرى — ثرى المدينة — كان عزيزاً عليه ، كريماً عنده ، أحب ان يلقى لديه الرفيق الأعلى ، فكان له ما احب ، وصار مثوى لرفاته ، أليس من حق هذا الثرى ان نقف دونه متهيبين مكبرين معظمين !

وبينما انا في خواطري هذه أجد صاحبيّ يلحان عليّ في الحديث معهما ، وهما الى جواري ، ويضج الذي عن يميني : انظر انظر . فعلى يمينك حائط المسجد قد خطت يد الخطاط التركي على صفحته أبـدع ما كتب الكاتبون ، وزخرف المفتنون . انظر ، تر سورة الفتح قد نقشت اسطارها كانما هي قطع من الرياض كسين زهراً ، وانظر اسماء الله الحسنى ، واسماء رسوله ﷺ ، قـد وضعت في تقاسيم ومربعات . ليس وراء ما افرغه الفن عليها من اتقان ولا إبداع . قد زين براعةَ الخط فيها ، جمال الأسماء ، وجلال المسميات .

وقال الذي عن يساري : انظر . هذه الروضة الشريفة عن يمينك . وانهـا لمحصورة بين القبر والمنبر . وانها التي قال عنها ﷺ (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ) . وفيها محرابه ﷺ . ولديها تحـدد موضعُ سجوده . ومكانُ صلاته . اصغيت الى صاحبيّ برهة وهما يتحدثان . لكن ناظريّ لم يتحولا عن

ركن المقصورة المشرفة . ثم لم ألبث ان وجدتني واقفاً امام كوة في المقصورة لا استطيع ان أُثبت فيها ناظري . ولا اجسر ان اتقدم نحوها . ولا اقوى على ان تمس يدي ما حولها ، واخذني من جلال الحضرة ما اخذني. فسكنت جوارحي، وهدأت نفسي . وكأنما الروح المحمدي الأطهر يملأ جوانب المقصورة ، وتنبعث اشعته من تلك الكوة .

كل شيء مما يحيط به يحدثني ، وينفث في روعي : هنا نور النبوة ، هنا ضياء الرسالة ، هنا آثار رحمة الله ، هنا ثمار الحكمة الإلهية ، وجماع الاسرار الربانية ، من هنا انبعثت النفوس الأبية ، والسواعد القوية، والعقول الصحيحة ، والعقائد السليمة ، والاخلاق المستقيمة ، فأقامت دولة ، شعارها العدل والاحسان . من هنا تحقق ان يد الله مع الجماعة ، وان رضوان الله لأهل العمل والطاعة .

وبينما انا مستغرق في احاديث نفسي ، واذا بالمزوّر أو المدعي ، يمسك بتلابيبي ويصرخ في وجهي ويقول لي : جول ، السلام عليك يا رسول الله ، نشهد ان نبي الله قد بلغ رسالة ربه . قال ذلك فيما يشبه الصياح العالي ، والناس من حوله يعيدون ما يلقنهم ، ثم تختلط الاصوات ، ويشتد الملقن او المزور في اجهاد حنجرته ، وجهارة صوته ، فأنتبه من إطراقي ، ويحضرني في هذا المقام الأدب الإلهي ، الذي أدب الله به الناس ، اذا اقتربوا من حجرات الرسول ﷺ او اذا نادوه من وراء الحجرات ، نعم حضرني قوله تعالى :

( يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم ، وأنتم لا تشعرون ) .

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم). ( لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ).

( إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ).

وعجبت كيف لا يكون شعار الزيارة: إطراق وخشوع. وإجلال وإكبار. وكيف حالنا وهذه آيات ربنا البينات . وارتفع صوت المؤذن . وهو شاب بخاري ، اتت به الى الحرم نوازع الخير ، ودوافع التقوى . ويالله . ما اعذب صوته . وما احلى نبراته . لكأنما يسكب في الآذان ، ألحان الفراديس . يا لله . وهو يرجع . حي على الصلاة . حي على الفلاح . فلا يَدَعُ قلباً الا وقد أفعمته خشية الله . ورجاءُ الله .

وتحولت في هدوء وسكون الى الروضة الشريفة ، التي هي روضة من رياض الجنة . فلا أكاد أجد قيدَ شبرٍ بل قيد اصبع من شدة الزحام ، فعجبت . ثم تذكرت قول النبي ﷺ لأبي ذرّ الغفاري : « يا أبا ذرّ ، صلاة في مسجدي هذا تعدل الف صلاة في غيره من المساجد الاّ المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة الف صلاة في غيره . وأفضلُ من هذا كله : صلاة يصليها الرجل في بيته حيث لا يراه الاّ الله عز وجلّ ، ويرجو بها وجه الله ».

تذكرت هذا الحديث ، ثمّ تمكنتُ من أن يَسَعني مكان يسير قُبالة المحراب النبوي ، وقلت لنفسي :

في هذا المكان ، ترددت الأنفاس الطاهرة الزكية المحمدية ، فعرتني قشعريرة واخذ قلبي يصغي الى أصداء الماضي ، فتذكرتُ أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ

بالمدينة ، فخطب أصحابه خطبته المأثورة : أيها النـاس أفشوا السلام . وأطعموا الطعام . وصِلوا الارحام . وصَلّوا بالليل والناسُ نيام . تدخلوا الجنة بسلام » .

## إكرام اليتيم ومصارف الزكاة

●

يقول تعالى وهو أصدق القائلين :

« فأمَّا الانسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعَّمهُ فيقولُ ربي أكرمَن ! ! وأمَّا اذا ما ابْتلاهُ فَقَدَرَ عليه رزقه فيقولُ ربّي أهانن ! ! . كلا . بل لا تكرمون اليتيم ! ! ولا تَحَاضُّون على طَعَام المسكين » .

ويقول تباركتْ أسماؤه :

« فأمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ . وأمَّا السائلَ فلا تنهرْ » .

ويقول تقدست صفاتُه :

(أرأيت الذي يُكَذِّب بالدين . فذَلكَ الذي يَدُعُّ اليتيمَ ، ولا يحضُّ على طعامِ المسكين ) .

لقد قرئتْ علينـــا تلك الآياتُ الواعظاتُ ، فأذكرتنا بقصة من قصص اليتامى مع بخلاء الأغنياء ...

***

**قصة يتيم**

بدأت القصةُ في أوائل رمضان . وخُتمت فصولها في أواخره . ولقـــد تمّت بتمامها كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، ووقـــع الجزاء العادل بالغني الباخل ، الذي أهان اليتيم وأعرض عن تدبُّر آي الذكر الحكيم ... واليكم القصة :

عرفنا والداً ظاهرَ النعمة ، موفورَ الثراء ، تنكرت له الأيام في تجارته ، فلم يزل يتلقى سهماً وراء سهم حتى تكاثرت السهام . فتضعضعت نفسه ، وخاب رجاؤه ، وانتهث أيامه ، تاركاً من خلفه غلامـــاً في السابعة من عمره ، يقاسي ذُلّ اليُتْم ، وآلام الفاقة . وكان في الحيّ الذي يأوي اليـــه اليتيم فِناء يتصل بدار عامرة آهلة ، وصاحبها غنيّ قـــد أغفل المالُ قلبَه عن ذكر الله !!! وكان اليتيم يأوي كثيراً الى فناء الدار ، يستروح مَرْحمـــة ، ويتحسس سعادة من يد تمسح برأسه أو بَسمة تشيع السرور في نفسه ...

شُوهد اليتيم في أوائل رمضان مهيضَ الجناح ، معفرَّ الوجه ، لا يجد من يتعهده أو يحنو عليه . وكان يتفرس في وجوه القادمين والرائحين ، فـــلا يظفر بتلك النظرة العاطفة ، ولا يجد من بين المـــارين انساناً يمسح عنه الأوصاب ، أو يغسل عنه الأحزان . فلما جن عليه الليل أوى الى فناء تلك الدار الآهلة ، يلوذ ببعض الجدران ، ويتطلع الى الأنوار تنفـــذ من صحن الدار . وتشاء الأقدار في ليلة من ليالي الشهر أن يتهيأ صاحب الدار وهو ثريٌّ ذو دنيا عريضة ، وظـــل ممدود ، ونعمة موفورة ، أن يتهيـــأ لركوب سيارته !! وإنه ليجتاز الفناء ، اذ بَصر بالغلام يدرج في الفناء وبه رِعدة من الخوف ، وعليه كآبـــة تحُزُّ في القلوب ، وهو لا يتكلم ، ولا يشكو بل تنبعث من نظراتـــه وتضرعاته مرارة الفاقة ... وألم البأساء ... فماذا صنع صاحب الثراء ؟؟ ماذا صنع وهـــو يصوم

النهار ويُحيي الليلَ بقرّاء يقرأون كتاب الله في داره ؟؟! لقد لَوى كشحه ، وأشاح بوجهه ، وانتهر بوّابه وصاح فيه ، كيف تسرب هذا الغلام الى هنا ؟!! وأين كنت حتى واجهني هذا الوجه الأغبر ؟؟ وما زال بالبواب يعنف في لومه ويشتدّ في حسابه ، حتى تجمع حوله الناس ووقفوا يروْن لعنة الله تنصب على هذا الغنيّ الفاجر ، وهو غاضب ثائر .

## لعنـــة الله

وكان أحدُ الواقفين قد ألم بكل شيء وعرف أن هـــذا الغني ذا نفس خبيثة ، لم يُصلِح منهـــا صيام ، ولم يُلن من قسوتها تقى ولا خشوع !! فأنـذره غضبَ الله وعقابـــه الذي لا يتخلف !! لكنّ هـذا البخيل الذميم كان أمّةً وحدَه في التبجح وسوء القـــالة !! فقد عبس واللوم يقطر من بين شفتيه ، وكأنما يقول للناس : ان الله يُحبّني !! ولهذا أغناني ! وأنتم لا تنقمون مني غضبي على هذا الغلام ، بل تنقمون مني انني كنت مظهر الرضا الإلـهي !! ان الذي اختصني بالمال ، ونعّمني وأكرَمني أراد ذلك لي وحدي !! ولهـذا فلا شأن لكم عندي ولا تقربون . غـــير ان لسان الحق كان يرد عليـــه ويصيح به ... « أيها الغني . ان غِناك وانت كما ترى لهو نقمةٌ من الله عليك ، ابتلاك به لِيثقُل حسابُك ، وليطول شقاؤك ، ولقد حدّثنـــا الله في كتابه فوصفك لنا قبل أن نراك ، وأخـــبر عن حديثك قبل أن نسمعك ، وبين لنا انك أنت ومن على شاكلتك تحسبون المالَ لديكم دليـــلاً لرضاء الله عنكم . وانكم قد خُصصتم به دون الناس لمزية فيكم ، أو فضيلة عندكم !!. ولهذا فأنتم لا تنتظرون له زوالاً !! ولا تتوقعون له نفاداً !! . ولا تسألون : أكان مـــا تعاملون به الناس شراً أم خيراً .. جحوداً أم عرفاناً ؟!.

أيها الغني الأثيم ، الذي يَدُعُّ هذا اليتيم ، لقد بانت عليك علامةُ الكفران وآذنت نعمتُك بالزوال ، وقد استخلفك الله على المـال ليبلوَك ويختبرَك ؟؟

أتشكره باكرام اليتيم ، وبذل المعروف أم تكفره بما تقوله الآن ؟ من هـذا الهذيان !!.

جرى هذا الحديثُ ، ثم لم تدُر الأيام دورتَها حتى نُعِي الى هـذا الغني ابنهُ الأكبرُ وهو يتعلم بأوربا ! ثم اشتد المخاض بوحيدته فأسلَمت رُوحها بعد أن تركت جنينها لا يدري ماذا ينتظره في تلك الحياة !.

ولقد أقيم سرادق المأتم أمـام القصر المشيد ، وشرع القارىء يقرأ :

« وليخشَ الذينَ لو ترَكوا من خَلفهم ذرية ضعافاً خافُوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » .

وهذا اليتيم صاحبُ القصة الواعظـة كان لا يزال على عادته يلوذ بأكناف المكان ، ويمُدُّ بصره في أقطاره ! ! وكأنه شاهدُ عَدلِ الله في أمر هذا الغنيّ الفاجر . وسَمِـع الناس والمعزُّون لسان الحال يقول : هذا أول الحساب ! ! وستتوالى الأيام السُّود على مقـدار ما أسرف الغنيُّ على نفسـه ، وأساء الى اليتيم ...

***

## حافظ ابراهيم وصيانة اليتيم

أيها الأغنياء ، يا من يصومون النهار ، ويقطعون الليل يستمعون القرآن ، هذه قصة يتيم من اليتامى ، واليكم كيف كان العقاب أسرعَ من رَجْع الحديث ، ألا وإن من أحيا نفس يتيم ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ...

ويا أيهـا الأغنياء . ان الشكر على النعم يديمها ، وان جحود الحق الذي للسائل والمحروم مؤذنٌ بالزوال ، دافـعٌ الى الهاوية ، مسيءٌ الى المجتمع . ويرحم الله ( حافظ ابراهيم ) اذ يخاطب المجتمع في أمر اليتيم اذا هو تعهـده ،

وأكرمه ، وأصلح نفسه بالبر ، وهذبها بالحكمة ، وغذاها بالاحسان . انه يقول :

أنت من يدريك لو أنبتّه ؟؟ ربما أطلعتَ بدراً نيّرا
ربما أطلعتَ « سعْداً » آخراً يُحكم القولَ ويرقى المنبرا
ربما أطلعتَ منه « عبدَه » مَنْ حَمى الدينَ وزان الأزهرا
ربما أطلعتَ منه شاعراً مثل ( شوقي ) نابهاً بين الورى
كم طوى البؤس نفوساً لو رَعَتْ مَنبِتاً خِصْباً لكانت جوهرا
كل من أحيا يتيماً ضائعاً حسبُه من ربه أن يُؤجَرا

***

## أمراض المجتمع يعالجها الاسلام – مصارف الزكاة

واذا كانت الشريعة الاسلامية قد عُنيت باسعاد المجتمع ، ورفع شأن الانسانية ، بتهذيب النفس البشرية ، فهي الى ذلك قد نظرت نظرة فاحصة الى أدواء المجتمعات تعالجها ، وتخفف من آلامها حتى لا يتفاقم شرها ، ولا يعضل داؤها . وأنت ترى أن الفقر من أدواء المجتمع ، اذا لم يعالج وتُلطّف حدته بالتشريعات كان وبالاً على المِلكية ، وكان خطراً على النفوس .

ان الفقير الحانق الذي لا يجد من المجتمع مواساة ، ولا ترفيهاً ، قد يعضّه الجوع ويدفعه اليأس ، حين لا يجد قلباً ينبض بالخير ، ولا يداً تمتد بالاحسان . ويا ويل المجتمع من سوْرة الفقير المحروم ! ! ويا شدّ ما يفعل الحقدُ بالأرواح البريئة ! . من أجل هذا فَرضت الشريعة الاسلامية ( الزكاة ) تؤخذ من الأغنياء فترد على الفقراء ، ثم حددت مصارف الزكاة تحديداً يكفل للمجتمع السعادة ويقيم دعائمه على أسس ثابتة . يقول تبارك وتعالى :

« انمـا الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملينَ عَليها والمؤلفة قلوبُهم وفي الرِّقابِ والغارمين وفي سبيل الله وابنِ السبيل » .

بُدِئت مصارف الزكاة بصنف الفقير ، ولعلـَّك تعرف أن الفقير في اللغـة هو المكسور الفقار !! فانظر لهذا الانسان الذي يشركنا في الانسانية ثم هو لا يجد ما يقيم ظهره . انه يصبح رمزاً على ناحية مريضة من المجتمع . وكلما تضاعف عـدد الفقراء تضاعف النقص في نواحي المجتمع وابتعد عن الكمال الذي تنشده المجتمعات . ولسنا في حاجة لأن نشرح الفقير وأن نحـدد المسكين كما يفعل الفقهاء ، ويختلفون في التعريف فيقولون : الفقيرُ من لا مال له ، ولا حرفة تسد حاجته ، والمسكين من له مال وحرفـة لكنهما لا تسدان حاجته . لا . نحن لا نمضي في هذا السبيل ، فكلنا يعرف من هو الفقير ، ومن هو المسكين ...

ورسول الله ﷺ كان يدع الى ضمير المسلم تعرّف البِـرّ . فلقد سئل ما البرُّ ؟ . فقال للسائل : استفت قلبك ! غـير أننا نلمح اشارة خطيرة في تقديم صنفي الفقراء والمساكين على غيرهما من الأصناف التي حددتهـا الآية . وبينهم الجُباةُ — العاملون عليهـا — وهم الذين تقوم عليهم النظـم ، وتؤسَّسُ بهم الحكومات . ذلك أن أيَّ نظام مهما أُحكم وضعُه ، وأية حكومة مهما عـلا نوعُها ، اذا لم تعالج أولاً داء الفقير ، وتستل سخـائم الفقراء ، كان قُصاراها انحلال واضطراب .

***

وقد رأى رسول الله ﷺ فقيراً ينظر اليه وهـو يأكل فاقتطع له لقيمات ، والتفتَ الى الصحابة وقال : اتـَّقـُوا سَمَّ الأعين ! فهل علم المسلمون أن رسولهم ﷺ يُحدّث أن للأعين سَمّا ؟ نعم . بها سَمٌّ معنويٌّ أفعل من السم الذي يداوي بالترياق . انـه سَم يسرى في جسم المجتمـع فيرضرض من كِيانه ، ويفتت من

أجزائه ، انه سم الحقد . سم الاحن . سم الضغينة . ولا دواء له الا بالزكاة ...

***

## عمّال الزكاة

ثم نظرت الشريعة السمحة بعد هذا الى صنف ثالث وهو الذي اشرنا الى أهميته من قبلُ ، وهو ينتظم الجُباةَ والعمالَ وأصحابَ الدواوين الذين يجمعون الزكاة ويسوقونها الى بيت المال ، ويقومون على تقسيمها بين مستحقيها . وهؤلاء هم عُمُد الحكومات ، وحفظة النظام ، فاذا لم يُحدد لهم قسطهم مما يعملون ، كانت الفوضى في أبشع صورها . فلقد تمتد أعينُهم — اذا لم تحدد أنصبتهم — الى ما في بيت المال ، فيصبح نَهْبا ، ويؤخذ سَرَفا ، ما دام جزاؤهم غير محدود ، وما داموا هم يقلّبون الأموال في أيديهم ويعملون على جمعها في بيتها ...

ولقد يقعد بهم الاهمال ، فلا ينشطون لجمع الصدقات من الأغنياء ، ركوناً الى أنه لا ينالهم على عملهم أجرٌ ولا جزاء . فكانت حكمةً عالية أن يفرض الله نصيباً من الزكاة لكل عامل عليها ، جابٍ لها ، منظم لتوزيعها .

***

## المؤلفة قلوبهم

وننتقل الى صنف آخر من مصارف الزكاة . هو صنف ( المؤلفة قلوبهم ) . فلقد نرى الرجل لا بأس بعقله وفهمه ، يترك ماله وذخره ، ثم يأتي معتنقاً للعقيدة الصالحة طيبةً بها نفسُه ، ولكنه ينظر فيرى فرقاً ما بين حاضره وماضيه . لقد كان بين أهله في كثير من المال ، فصار بعد أن فارقهم في قُلّ

منه ... أو ليس من صلاح المجتمع الذي انتفع بعقل الرجل ، واعتز بشخصه أن يرفّه عنه بعض الترفيه ، حتى يندمج في البيئة الجديدة ، ويجد أسباب المعيشة بينها ؟ أليس من صلاح المجتمع أن يؤلّف قلبُه على ما اعتقده حقاً وصواباً من العقيدة الطاهرة ، حتى لا تنفر النفوس من المجتمع الجديد الذي يتألف ويتكون . نعم ، ان ذلك سننُ المجتمعات الناشئة وذلك نهجُ البر ، وسبيل الخير .

* * *

## تحرير العبيد

يجيء بعد ذلك صنف ( الأرقاء ) الذين سلبوا الحرية . وفقدوا الأهلية . جاء الاسلام والرِّق فاش منتشر . فرغّب في الاعتاق ، وفك قيود الانسانية العانِية . ولقد أكثرت الشريعة الاسلامية من التشريعات التي تعالج هذا النقص ، وتحصر الرِّق في أضيق الحدود . وكان من أسمى ما ذكره القرآن أنه جعل سبيل السعادة لكل مؤمن أن يقتحم عقبةً كبرى . وما هي تلك العقبة التي تقف بين السعادة الأبدية ، وبين النفس البشرية ؟؟ انها فك رقبة عانية ، انها منح الحرية لرقيق مستعبد ، أو احياء نفس أماتها الفقر أو اليتم .

نعم حرّض الله المؤمنين على اقتحام العقبة في أسلوب قوي حازم لا يدع مسلماً مالكاً لعبد الا وهو مسارع الى عتقه ، يقول تعالى :

« فلا اقتحمَ العقبةَ . وما أدراك ما العقبة ؟؟ فكُّ رقبة ، أو إطعامٌ في يوم ذي مسَغبَة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً

ذا متربة » .

وانظر كيف جعل الله سبحانه وتعالى العقبة التي تقف في طريق السعادة ذات شعاب يستطيع المؤمن أن يقتحمها من نواحيها . فمن شعابها فك الرقاب . أو إطعام اليتيم من ذوي القربى ، والمسكين اللصيق بالتراب من العَوز والفاقة ...

***

## أعانة المثقلين بالديون

وهناك صنف آخر جُعِلَ له نصيبٌ في الزكاة ، ذلك الصنف هو ( الغارم ) الذي أثقله الدين ولزمه أداؤه ، وقد يكون هذا الصنف قد غَرِم مالَه في سبيل إصلاح ذات البين والتوفيق بين المتنازعين ! وان من الخير للمجتمع أن يُشجع الشارعُ هؤلاء الذين يعاونون على الاصلاح ، و يفضون الخلافات بين الجماعات . لهذا شرع لهم القرآن نصيباً في الزكاة ...

***

## المسافرون الذين أعياهم السفر

فاذا انتظم المجتمع بعد ذلك كله وكَملَتْ نواحيه ، وكان من مظاهر رقيه أن يمر به ( ابن السبيل ) المسافر ، فيجد في جنَبَاته سهماً يتبلغ به الى وطنه ، ويصل به ما انقطع في طريقه ، فقد يكون زادُه فُقِد ، أو راحلته عجَزت وكلّت ، وهو بعدُ على سفر ...

فهذه الأصناف تكمل نواحي المجتمع ، وتجعله متماسكاً ، يشد بعضه بعضا .

***

لقد شفى الله بالزكاة نفوس المسلمين ، وأصلح بمصارفها جماعةَ المؤمنين ، وجعل مجتمعهم بفضل تحديد تلك المصارف أرقى المجتمعات ، وتتبع أصناف المجتمع كلَّها ، فجعل لكلٍّ نصيباً مفروضاً ...

***

وبعدُ ، فما على المسلمين اليومَ الا ان يذكروا ، ويتدبروا ، فان ما شرعه لهم كتابهم حري بأن يجعلهم خير أمة أخرجت للناس ..

***

# حق المجتمع وحق الفرد في الاسلام

## عظات من الماضي للحاضر

●

كان لنا رفيق مسلم ، حقوقي ، تخرج في الشرائع وحذق الاجتماعيات وتروى من علم التقنين وجال في التراث العلمي للرومان واليونان — غير ان شريعة واحدة واجتماعاً واحداً لم يظفر منه الاّ بحسوة طائرة ما شفت لهذا « المثقف » غليلاً ولا بلّت له عرقاً . تلك الشريعة هي الاسلامية ، وهذا الاجتماع هو الاسلامي . فكنا كلما تلاقينا في ملأ من الاخوان راح يشيد بنظرياته الاجتماعية الحديثة ، ويطلع الناس على آثارها في المجتمع الانساني . فإذا ما اشتبكت الاحاديث ودار النقاش وشاء بعضنا ان يدير المناقشة دورة اسلامية تاريخية ، كبر على المسلم الحقوقي ان يستمع أو يعي او ينتفع . ولقد كان فيه بقية من حياء تحجزه ان يجحد ما لا يعرف عن الاسلام ، فكان اذا سمع بعظمة من عظائم المجتمع الاسلامي لم يزد على ان ينقطع هو عن الحديث ويدع لغيره ان يتكلم . فلما اجتمعنا بالأمس جرى حديث في حقوق المجتمع وحقوق الافراد فقال قائل :

«ان حق المجتمع على الفرد لم يتقرر احكم ولا اشمل ولا انزه مما قرره الاسلام» . وما كاد ينتهي القائل الى هذا المقطع حتى قاطعه الحقوقي المفتون وصاح فيه : « ما سمعنا ولا علمنا ان حقوق المجتمع قد تقررت واضحة شاملة قبل التشريع الحديث وقبل ان يبرز « روسو » نظرية العقد الاجتماعي » ثم أراد ان يمعن في

الغرور فقال : « وليس مما يشرف الاسلام كثيراً ان تقحموا فيه كل نظرية وكل تقنين فهو دين وحسب . وأين رأيتم في المبادىء الدينية ما يقرر ان عدوان الفرد على غيره هو ـ في الحق ـ عـدوان على المجتمع كله ؟ بل أين قرأتم في كتبكم ان من حق المجتمع ان يقتص من الجاني ولو سامحه المجني عليه؟ ». هنا غضب الحاضرون وأرادوا ليقفوا هذا الاسلوب الخاطىء ويصدُّوه عن عُدوانه . غير ان واحداً من الحاضرين كان رزين المشهد له اغضاءة وفية وأناة تجذبان اليه الاسماع والابصار وقد عرف بالبحث الهادىء المنسق المرتب وهو فسيح الصدر بعيد الغضب عارف بتصريف الأمور ونزوات النفوس . فقـــال لصاحبنا : « إني لا أحزن منـك ولكن احزن عليك وارثي لك !! فليس يضير المبادىء الاسلامية وليس يمحوها أنك لم تسمع بها ولم تعرفها ولعلي مسمعك بعض ما غاب عنك ولعلك تعرف في شرعة الانصاف ان يكن قضاؤك وحكمك من علم ويقين. استمع ياصاحبي : ـ ان الاسلام دين جاء لسعادة الانسان في حياتيه الدنيا والاخرى ولقـــد عني بحق المجتمع عناية ما عرفت من قبله ولا ظهرت من بعـده ، الاّ مقتبسة منه صادرة عنه. وسأعجلك فأضع اصبعك على ما ضربته أنت لنا مثلاً لتقوم عليك الحجة من كتاب الله .

يقول تعالى : ـ **مِنْ أجل ذلك كتبْنا على بني اسرائيل انه من قَتَل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتَلَ الناسَ جميعـاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً .**

فهل جاء في كتب الشرائع ونظم الاجتماع صورةٌ للصلات الاجتماعية اشمل وادق واحكم من ذلك ؟ ان المشرع الاسلامي قـد نظر الى النوع البشري على اعتبار كونه وحدة تتألف من افراد وان هناك رباطـاً وثيقاً قد انتظم افراد النوع الانساني على تنائي اوطانهم واختلاف اجناسهم وتباين شعوبهم ثم جعل كل عدوان فردي عدواناً على النوع جميعه . هكذا كان النظر الاسلامي العـالي الى

المجتمع نظراً واحداً شاملا . فلم يقتصر على مجتمع خاص ولا على وطن بعينه ، أو لست يا صاحبي تتمثل العالم قد انطوى في تلك الآية الموجزة، تتمثله كشبكة ملأى بالعيون حيكت بيد صناع فاذا دب الفساد في واحـــدة منها فقد وهن نسيجها وانتقض غزلها وتقطعت صلاتها ولم تمسك بعد على شيء فيها .

أية علاقة توجب حق المجتمع يستطيع الفيلسوف أو المشرع ان يبرزها على هذا المثال . بل أيّ جنان وأيّ لسان ؟ وأي معنى ـ وراء ذلك يبين للناس انهم وإن بعدوا متصلون وانهم وإن تناءوا مرتبطون وأنّ ازهاق نفس بغير حق ولو كانت في الصين هو افناء وقتل للنوع جميعه عربيه وهنديه وفرنجيه وامريكيه . وانت يا صاحبي فقد ترى ايضاً كم من نفوس يقتلها الجهل وفي قتلها قتل للناس اجمعين وكم من نفوس يحييها العلم والفضيلة وفي حياتها إحياء للناس اجمعين. كل هذا تنتظمه الآية الكريمة البليغة الجامعة بمعانيها ومراميها .

ويا صاحبنا الآن وقد شاء القدر ان يضربك مثلا للآخرين في أنهم اعداء ما جهلوا فاستمع بعض ما يلقى عليك تر الاسلام قد امتدت فطرته الى المجتمع من أطرافه فراح يكتنفه ويتعهده ويرعاه ويُعنى به ويقرر حقوقه ويتقاضى الافرادَ واجباتهم نحوه لـكي تكتمل له السعادة ويرف على جنباته النعيم وذلك في براعة وكلمة ليس الاّ الإسلام وحده الحريّ بها وليست الاّ ايات القرآن مبعثاً لها ، لانه تنزيل من حكيم حميد .

لم يعرف الافراد في مجتمعهم الاسلامي الاّ انهم بناة للنظام الاجتماعي وأدوات في صرحه العالي وعمد في جـــذره الشامخ، فكل مسلم مطالب بان يهذب نفسه ويقوي خلقه ويجـــد ويدأب ليتحول ذلك كله نفعاً خالصاً للمجتمع وتدعيماً لحائطه وصيانة لأساسه . لم يعرف الفرد الاسلامي لنفسه قوة ولا حيـــاة ولا نباهة شأن ولا عزة الاّ وهي مقتبسة من المجتمع الاسلامي وان مردها اليه . فكل خير يأتيه من ناحية المجتمع انما هو اضعاف الخير يأتيه من ناحية ذاتيته

ولقد خرجت تلك المباديء رجالاً شرفت بهم الانسانية واعتزت الاجتماعية . وسأقص عليك مثلاً لعله اظهر ما يكون البرهان على فناء الفرد المسلم في خير المجتمع الاسلامي .

كان خالد بن الوليد في جلالة شأنه وسيادة اصله وشرف منبته يسامي عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنهما . وكان خالد الى ذلك بعيد الصيت في الوقائع والحروب شديد المنزلة في قلوب الجند يحبونه حباً جماً ويفدونه بانفسهم . وكان على رأس الجيوش الاسلامية في حصار دمشق ومن تحت امرته ابوعبيدة ابن الجراح . رأى أمير المؤمنين عمر أن من السياسة الرشيدة تقليد امارة الجيش لابي عبيدة ونزعها من خالد . فكتب بذلك وابلغه إلى أبي عبيدة وأمره بنشر هذا على الجند وان يعتقل خالداً بعمامته ويحاسبه على ما كان منه في امارته. فتحرج ابو عبيدة من الأمر لأن الجيش كان في ساعاته الحاسمة والجند مفتون بخالد والنصر تلوح معالمه وخالد هو خالد سيف الله المسلول وسيد بني مخزوم . فلما أبطأ الأمر على عمر وأيقن ـ مخلصاً ـ أن الناس قد فُتنوا بخالد وأن اهل الشام يوشك ان يقدسوه وان المجتمع قد يتصدع اذا ما بقي خالد متألق النجم. فاعجل أبا عبيدة مرة اخرى فلم يسعه الاّ ان يقرأ كتاب عمر ولكنه ابى ان يحاسبه فقام بلال الحبشي وهو من فقراء العتقاء واخذ بعمامة خالد فاعتقله بها وسأله عما أمر به عمر فأطاع خاضعاً واجاب داعي الخليفة ثم عمل تحت امرة ابي عبيدة جندياً حتى تم الفتح فارتحل الى حمص وخطب هناك مودعاً جنده وتحمل قافلاً الى المدينة فلما لقي عمر قال له: والله يا عمر انك في امري غير مجمل. فقال يا خالد والله انك عليّ لكريم وانك الحر الحسيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . ثم كتب الى الأمصار : اني لم اعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه وان يُبتلوا به .

من تلك القصة الخالدة ترى الى أي حد بلغ فناء الافراد في خير المجتمعات . خالد لم يأثم وقد استغضب وقد يستطيع غير خالد ومن هو في منزلته ان يقف غير

هذا الموقف وهو في أوج مجده فيخلع الطاعة ويشق العصا ويستقل بجند تفديه وتحميه . لكن خالداً قد أعرقت فيه المبادىء الاسلامية فرأى نفسه — وان جل وعظم — فهو فرد من المجتمع الاسلامي وانه ما عمل وما يعمل الا لخير المجتمع ولصيانته من الفرقة. وان عمر ما صنع صنيعه الا لخير هذا المجتمع. فقاس خالد الأمر وتضاءل شخصه الجليل أمام عظمة الوحدة الاجتماعية الاسلامية .

واعلم — يا صاحبنا — ان سلامة المجتمع والخوف من نزوات الافراد كانت توحي الى أولياء الأمور ان يشتدوا ما وجبت الشدة .

ويا صاحبي لقد بلغ من حب هؤلاء لمجتمعهم ومعرفتهم لحقوقه وتفديتهم له بالنفس والمال ما لا يزال برهاناً ساطعاً على ان الاجتماعية الاسلامية سيطرت على مشاعرهم فنبذوا شهوات نفوسهم وخلعوا أنانيتهم وراحوا يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . نعم لقد انتجت الاجتماعية الاسلامية خلقاً قوياً بعيد المدى من ايثار عجيب يدرك ويحس الروابط الاجتماعية على صورة بليغة نادرة . انظر الى انكار الذات في حياطة المجتمع اذ أمر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على الجيش وهو لم يتجاوز السابعة عشرة وفي الجيش ابو بكر وعمر وابو عبيده وسعد . فلم يبد من احد تبرم ولا تسخط علماً بان صلاح المجتمع ونجاح الأمر في اتباع تلك الحكمة الاجتماعية . فلقد قتل زيد أبو أسامة وهو يحارب . فقال له عليه السلام : سر الى موضع أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش . ولما مات عليه السلام والجيش متأهب للمسير لم تتحرك نوازع النفوس الى انتقاد ما رسمه عليه السلام . بل خرج ابو بكر وهو خليفة المسلمين فقال له اسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا نزلت ولا ركبت وما عليّ ان اغبر قدمي ساعة في سبيل الله ؟

انظر ما هذا النظام الحكيم وما هذا النصح الاجتماعي البديع وما تلك النفوس الكبيرة في تواضعها المشرعة في اجتماعياتها . واستمع الى حديث من

احاديث الايثار ما نماه وفداه وحببه الى النفوس الا" الايمان بحق المجتمع .

كانت أسرة على بن ابي طالب قد اصابتها « مخمصة » أي شدة جوع فأخذ علي من بعض اليهود صوفاً لتغزله فاطمة الزهراء واجرها على الغزل ثلاثة آصع من شعير . فغزلت أول يوم شيئاً منه وطحنت وخبزت فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين . وقال السلام عليكم أهل بيت النبوة ، انا مسكين من مساكين الامة . اطعموني شيئاً فدفعوا اليه الاقراص . وفي اليوم الثاني جاءهم يتيم فدفعوا اليه الاقراص . وفي اليوم الثالث جاءهم أسير فدفعوا الاقراص وباتوا على الماء . فشرف الله هذا الصنيع وهذا الايثار وهذا الفداء الاجتماعي ، وهذا الإحياء للانفس بالثناء الخالد في قوله تعالى: «ويطعمون الطّعامَ على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لِوجْه الله لا نُريد منكم جزاءً ولا شكوراً » .

هكذا كان أداء الواجب الاجتماعي وهكذا كان الاحتفال بإسعاد المجتمع . فاذا رأيت يا صاحبنا ما يبهرك من أصل اجتماعي أو فكرة تشريعية فارفع بصرك الى الإسلام ، سل أهل الذكر ، ارجع الى كتاب الله . فانك واجد اصول الفضائل ومآخذ الخير الاجتماعي — انك واجد انزه الحقوق ، واقدس الواجبات:

«وَمَا فرطنا في الكتاب من شيء»

* * *

# عـــدل الله نافذ
# في الأفراد والامم

●

يقول الحق عزت آياته :

( إنّ الله لا يظلِمُ مِثقالَ ذرةٍ ، وإن تَكُ حسنَة يضاعفها ، ويؤْتِ من لدنه أجراً عظيماً ) .

فعدل الله نافذ ، وجزاؤه في الأفراد والأمم واقع ، ما له من دافع ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين ، يثيب المحسن بإحسانه ، ويجازي المسيء بإساءته ، لا ينقص أحداً من أجر عمله شيئاً ، كبر أم صغر ، حتى ولو كان الشر أو الخير مثقال ذرة ، مقدار الذرة ، وهي أصغر ما يدركه الإنسان من الأجسام .

ومن آثار رحمة الله ، أن مقدار الذرة من الشر يجازى بمقداره شراً لا يزيد ، ومقدار الذرة من الخير يجزى بمقدار أزيد هو عشر أمثاله ، بل قد يضاعفه الله أضعافاً كثيرة ( مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشْرُ أمثالِها ، ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فلا يُجزى إلاّ مِثْلَها ، وهُم لا يُظلمون ) ( مَنْ ذا الذي يُقرضُ الله قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ لهُ أضعافاً كثيرة ) .

ان ذلك من الله سنن لا يتغير ولا يتبدل ، وهو رحمة وعدل ، وسخاء وفضل :

***

ولقد ثبت في العقول وحق في كتاب الله ، انه لا يستوي محسن ومسيء ، ولا مطيع وعاص .

(أمْ نجعل الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسدين في الأرض ، امْ نجعل المتقينَ كالفجار ) . ( أم حسِب الذين اجترحوا السيئاتِ ، أنْ نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؛ ساء ما يحكمون ).

ولقد جرت حكمة الله ، وسننه في خلقه ، أن جزاء الأفراد على أعمالهم ، قد يتأخر ( ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بظلمهم ما تَركَ على ظهرها من دابةٍ ، ولكن يؤخرهم الى أَجلٍ مسمى ) ( وَجعلنا لمهلكِهم موعدِا ) يتأخر الجزاء حتى يحين موعده ، الذي تتحقق فيه حكمة الله ، وإذا لم تتسع حياة الأفراد لإدراك الجزاء في هذه الدنيا ، لأن مدة العمر وإن طالت قصيرة ، فسيجد كل فرد أعماله في دار الجزاء حاضرة لديه ، وجوارحه شاهدة عليه ( يَوم تَجدُ كلُّ نفسٍ ما عَملتْ من خيرٍ مُحْضَرا ، وما عَملتْ من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بَينَها وبينَه أمداً بعيداً ) ( ينبّأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّرْ ) .

***

واذا كان أمر الجزاء للأفراد يجري على ناموس من الحكمة والنظام ، وأنه قد يكون إرجاء وإمهال ، لا ترك وإهمال — اذا كان الأمر كذلك — فإن جزاء الأمم والشعوب على اعمالها ، وعقاب المدن والقرى على آثامها ، يجري على ناموس إلهي آخر ، هو وقوع الجزاء حتماً في هذه الدنيا ، وحلول العقاب الوشيك ، وتحقيقاً للعدل والسنن والنظام الذي قامت عليه السموات والارض .

فأيما امة عتت عن أمر ربها وامعنت في الترف والفسوق والعصيان ، وأيما شعب انحرف عن النواميس الصالحة للعمران ، وأيما مدينة أو قرية فشا فيها

الشر واستشرت المآثم ، وأيما مجتمع جاوز حدود الحق ، وسكت عن المنكر ، وامتُهنت فيه الكرامة الانسانية ، وسادفيه البغي والظلم والطغيان — أيما هؤلاء كان فقد وقع عليه جزاء الله لا محالة وإن عظمت في الظاهر قوة الأمم ، وأن كثر عديدها ، وإن فرحت بما عندها من العلم ، يقول الحق تعالت آياته :

( أَفَلَمْ يسيروا في الأرض ، فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم ، وأشدَّ قوةً ، وآثاراً في الأرض ، فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسِبون ، فلما جاءتْهم رُسلُهم بالبينات - بحقائق النواميس والبراهين الإلـٰهية - فَرِحوا بما عندهم من العلم — العلم الآلي الذي لا يهذب نفساً ولا يجلب خيراً — وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزِؤون ، فلما رأوْا بأسنا — العذاب والانتقام في الدنيا — قالوا آمنا باللهِ وحدَهُ ، وكَفرْنا بما كنا به مشركين — منهم من يعبد المال ، ومنهم من يعبد القوة ، ومنهم من يعبد الأهواء والأوهام — فلمْ يكُ ينفَعهُم إيمانُهم لما رأوْا بأسنا ، سُنّة الله التي قد خلَتْ في عبادِه ، وخَسِرَ هنالك الكافرون — الكافرون بالحق وبالفضيلة - ( سُنّة الله التي قد خَلتْ من قبل ، ولنْ تجدِ لسُنّةِ الله تبديلا ) .

ويقول الحق في وصف الميراث الذي خلفه الظالمون ، بعد أن اخذهم عدل الله في الدنيا ، لأن أعمالهم ومآثمهم كانت عامة شاملة لا تحتمل الإرجاء ( كم تركوا مِنْ جنّاتٍ وعيون ، وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ، ونعَمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك ، وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكتْ عليهِمُ السماءُ والأرضُ ، وما كانوا مُنظَرين ) .

ويبيّن الله تعالى أن للأمم آجالاً كآجال الأفراد ، وأن الأمراض الاجتماعية ،

من تقاطع وتخاذل ، هي التي تسرع في افنـاء الأمم ، وتدفع بها الى نهايتها ، الى الأجل الذي حدده ناموس الله (ولكلّ أمـــةٍ أجَلٌ ، فإذا جاء أجلُهم ، لا يستأخِرون ساعةً ولا يَستقدِمون ) .

هذا هدى الله ، وهذا سنن الله ، في عقاب الامم ، وجزاء الشعوب ، اذا ما فشا الفساد فيها ، وعم التقاطع بينها ، ودام التخـــاذل والتنابذ ، والشقاق والنفاق ، وانحرفت عن سنن الحق ، فإما ان يسلط الله عليها أحداث الكون ، وآفات الدنيـــا من خوف وجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وحروب مبيدات ، وإما أن يذل الله تلك الأمم ، على أيدي عباد له أولي بأس شديد ، فتتبدد قواها . وتذهب ريحهـــا . وإنا لنضرع إلى أرحم الراحمين كما ضرع اليه أمير الشعراء شوقي رحمة الله عليه :

وقى الأرض شرّ مقاديره  لطيف السماء ورحمانهـا

* * *

# القضاء والقـــدر

●

شاعت في الناس شائعة آثمـــة ، تلك ان عقيدة الايمان بالقضاء والقدر ، انما هي مطية الخنوع والاستسلام ، وباعثـة الوهن والاستكانة والتواكل والعجز عند عامة المسلمين .

فالرجل يسام الخسف ، ويتجرع الذل ، ثم يقول هكذا أراد القدر لي؟ والرجل يقتله العجز ويروعه الجبن والبخل ، وهو يقول ، هكـذا كتب الله علي . وكل هذا منكر من القول وزور ، وتخاليط يأباها كتاب الله ، وتنكرها سير السلف الصالح ، وتاريخ الأمة الاسلامية ، التي كانت تؤمن بالقضاء والقدر ، ثم هي مع ذلك كانت تركب الاهوال ، وتجالد الاخطار ، وتدوخ الممالك ، وتشيد معاقلها فوق قنن الجبال ، وكان أفرادها ـ ولهم تلك العقيدة ، عقيـدة الايمان بالقضاء والقدر ـ لا يستكينون عند المصائب ، ولا ينسون انفسهم عنـــد النعماء ، فلا يبطرهم الغنى والنجاح ، ولا ييئسهم الفشل ، اذا فشلوا أو اخفقوا ، بل كانوا يتخذون من تلك العقيدة عونـــاً من الله يخفف كوارث الحيـاة اذا ألمت ، كما يتخذون منهـا تذكيراً بالله ونعمته ، اذا اقبلت الدنيـــا ، وسالمت الأيام . كما يتخذون منها عدة لاقتحام الاهوال ، ودرعاً للدأب والكد والاستبسال .

***

ان عقيدة ( القضاء والقدر ) ـ سليمةً صحيحةً مفهومةً على وجهها الحق ـ

هي من اسمى العقائد، التي تبعث السمو والسخاء والشجاعة والبسالة والاقدام ، وهي ناسجة الأمل الفسيح ، وطاردة لليأس المميت ، وبانية للرجاء المتصل المعقود . والرجل الذي لا يؤمن بقضاء الله ، ولا يثق بحكمة الله اذا ما وقعت به مصيبة أو حلت به كارثة ، قتل نفسه هماً وحزناً ، ويأساً وخوراً . والناس اما جاهل بحقيقة تلك العقيدة فهو عاجز مستكين ، وإما جاحد فهو متمرد ساخط باخع نفسه. والحق أن عقيدة القضاء والقدر عقيدة ترشد اليها الفطرة، وينبه اليها الواقع ، فالحادثة تقع في الكون ، وهي ذات مقدمات وعلل واسباب تنحدر من الزمان الغابر ، لا يهيئها ولا يجليها لوقتها إلاّ علاّم الغيوب و أحكم الحاكمين . وليست هاتيك العلل والاسباب والملابسات تتكشف للإنسان العاجز الضعيف ، فهو امام أحداث الدنيا ، يعتصم بقضاء الله ، ويأمل في قدره ، فيتماسك ولا يتخاذل ، وينهض ولا يتعثر ، وقد يكون بعد الحزن سرور ، وبعد الترح فرح ، وان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا .

***

وليست عقيدة القضاء والقدر غلاً في الاعناق ، ولا قيداً في الارجل ، ولا كابوساً على النفوس ، وانما هي آية النشاط الوثاب ، ومنهضة الامم ، وحافزة الشعوب . ولنرجع اليها في مراجعها الواضحة ومواردها الصافية ، وهي آيات بينات ، جاء بها القرآن الكريم . وابرز الآيات التي تقرر ( عقيدة القضاء والقدر ) هي آية سورة الحديد ، فهي تبين معناها ، وتوضح حكمتها من غير ما لبس ولا غموض ، يقول عزت حكمته : ( ما أصابَ مِنْ مصيبةٍ في الارضِ ولا في أنفسِكم إلاّ في كتابٍ من قبلِ أنْ نبرأها ، إنَّ ذلك على اللهِ يسير ، لكيلا تأسَوا على من ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، واللهُ لا يُحبُّ كلَّ مختالٍ فخورْ ، الذينَ يبخلونَ ويأمرون الناس بالبخلِ ، ومَنْ يتولَّ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحَميد . )

اذن حكمة الاعتقاد (بالقضاء والقدر) هي طرد اليأس والحزن والضجر ، اذا ما جاءت أحداث الدنيا ، أو وقعت شؤون الحيـــاة على غير ما يحب الانسان ويهوى ، فقد يكون في طيّ المصاب نعمة ، وأية نعمة ؟ وقـــد يكون في طي النعمة مصيبة وأية مصيبة ؟ والامثال ماثلة ، وما يعقلها الاّ العالمون .

أليست الآية الكريمة تُهيب بالناس ، اذ كانت آجالهم محدودة ، وانفاسهم معدودة ، والامور بيد الله ، يصرفها كيف شاء ، ففيم الأسف على الفـــائت ، وفيم الاستنامة الى الحاضر ؟ كيف يرهب الموت صاحبُ العقيدة ، وهو يدافع عن حقه ، او يناضل في سبيل مجـــده ، وكيف يخشى الفقر اذا أنفق في سبيل الخير ، وفي اسعاد الخلق ؟

هذا الاعتقاد هو الذي كون ( الشجاعة الاسلامية ) وجعلها تطير مـــع الدعوة في الآفاق ، فتلقي الرعب في قلوب الاعداء . ولقـــد كان قائد المسلمين الاكبر ، محمد ﷺ يعتصم ( بالقضاء والقـــدر ) فيضرب للناس امثالاً خالدة في الاستبسال والثبات وانتزاع النصر للحق من بين احلاف الباطل .

***

كان عليه السلام واقفاً يوم ( أُحد ) وقد تفرق الناس من حوله ، وارجف بعضهم بموته ، ورماه رام فجرح وجنته ، وأنشب حديـــدة في ثُنيته ، فلما نزعت ، نُزعت معها ثنيتاه الشريفتان ، فنزف دمُه الزكي ، وهو مـــع هذه الشدائد ، لا يولي ظهره ، ولا يفكر الا في ان يعلو من الجبل المكان الارفـــع الذي يحتله الاعداء ، فهو عليه السلام في الساعة الحازبة الآزمة ينهض متماسكاً ، وهو يقول : لا ينبغي للاعداءان يعلو مكانُهم على مكاننـــا ، اللهم لا قوة لنا الا بك .

وما زال يجمع اشتات المتفرقين ويدفع في ظهور أعـدائه ، حتى نصره الله

وأعز جانبه .

وهذه ( عقيدة القضاء والقدر ) قد جعلت المرأة الاسلامية تبذل اقصى انواع الجود في سبيل صيانة العقيدة ، صيانة الحق ، صيانة الكرامة .

ان اعظم الجود ، واعز السخاء ، تركُ الانسان داره ووطنه وماله واهله ، هجرة بدينه ، واعتصاماً بقضاء الله وقدره .

شوهدت امرأة مسلمة ، تركب بعيرها ، في هجرتها الى الحبشة ، فسألها رجل من المشركين: — وانت الى اين يا أم عبد الله ؟ فقالت : — لقد آذيتمونا في ديننا فسنذهب في ارض الله حيث لا نؤذى . وما ابرعها ، وقد فقهت المعنى القرآني السامي :

« إنَّ الذينَ توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كُنّا مُستضعفينَ في الأرض ، قالوا ألم تكن أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها » .

فلم ترض لنفسها ان تقيم في مكان مستضعفة ذليلة .

***

لقد أعز الله تعالى المسلمين ، حين اعتزوا بعقيدة القضاء والقدر ، وظفروا بأسعد ثمارها ، يقول تعالى : ( الذين قال لهمُ الناسُ انّ الناسَ قد جمعوا لكم ، فأخشوْهُمْ ، فزادَهُمْ ايماناً ، وقالوا حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ لم يمسسهُم سوءٌ ، واتبعوا رِضوان الله والله ذو فضل عظيمْ ) .

الا نعم الاعتقاد يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن ، ويدفع بها في

ميادين المجد والعزة . ويطهرها من رذيلة البخـل ، لتسعد هي ، وتُسعد الناس بالبذل والاحسان والسخاء .

تلك اثارة من عقيدة القضاء والقدر ، كلها فضائل ومحامد ، ومعها شواهدها من ايام السلف الصالح ، ومعها أيام الله ، وها نحن ، وها هو حاضرنا . فنرجو أن نعتصم بعقيـدة القضاء والقدر ، ونقتحم ميادين الحيـاة ، فعسى الله ان يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده ، وعسى أن نكون خـير خلف لخير سلف .

* * *

## حق الفرد على المجتمع

# القرآن الكريم يقرر العدالة الاجتماعية

•

يهيب بنا خالق الكون ، واهب الوجود ، وهو اصدق القائلين :

( قَدْ جَاءكِمُ مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يَهْدِي به الله من اتَّبع رضوانَه سُبَلَ السَّلام ، ويُخرجُهم من الظُّلماتِ الى النورِ بإذنهِ ، ويهديهم الى صراطٍ مستقيم ) .

هذا النور هو ضياء الاسلام ، وذلك الكتاب هو القرآن الحكيم ، ورضوان الله ، ما رضيه الله وبيّنه في آياته المحكمات ( سبل السلام ) طرق الأمن والرضا ، والطمأنينة والسعادة ، التي تكفل للناس ان يعيشوا آمنين راضين متعاونين متحابين ، يتعرف المجتمع حق الفرد ويؤديه اليه . اما اذا جهل المجتمع أو تجاهل حق الفرد ، وجحد ما عليه له من واجبات ، فاذان من الله ـ عندئذ ـ أن هذا المجتمع هالك ، وان الناس بعضهم لبعض عدو ، يقول تقدست ذاته : ( وأنفقوا في سبيلِ الله ولا تُلقوا بأيديكم الى التهلُكةِ ، وأحسنوا ، إنَّ الله يُحبُّ المحسنين ) . فما ابلغها حكمة ، وما اصدقها قضية ! إن ترك الانفاق في سبيل

الله ، في سبيل الخير العام ، في سبيل اسعاد المجتمع ، انما هو جحود لحق الأفراد ، وانما هو القاء بالمجتمع الى الفوضى ، الى ( التهلكة ) . وانها لاشارة بليغة ، الى ما للاحسان والبر ، من صيانة للمجتمعات ، ووقاية للنظم من العبث بهـا ، والخروج عليها ، كل هذا يتجلى في صياغة الآية الكريمة ، اذ قرن الامر بالانفاق في سبيل الله مطلقاً شاملاً الى النهي عن اهلاك الناس انفسهم بأيديهم ، اذا هم بخلوا ، وغلّوا ايديهم عن الاحسان ، فكانما سبيل الامن والسلام هو الاحسان المطلق الى الافراد ، فهو الذي يذهب الاحقاد ، ويميت البغضاء ويبعث الإخاء .

ويقرر الكتاب العزيز ان للآدمي كرامة ، وله حرمة ، فهو يرسل الآية التي تسجل شرافة هذا الآدمي ، وعراقة أصله اذ يقول تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهمْ على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً » .

ويتوعد الله جل وعلا ابليس اذ عصى أمر ربه ، ولم يسجد ولم يخضع لآدم إبي البشر قال : ( ما مَنَعَكَ أنْ تسجُدَ لِما خَلقْتُ بيَدّي ) . ينسب الله الخلقة الآدمية الى يديه تعالى ( بصيغة التثنية ) فلم يقل بيدي ، بل قال بيديّ وإنما الاشارة كريمة جليلة المعنى ، تدل على أنّ تكوين الخليقة الانسانية قد اجتمع له أكمل قدرة ، وأبدع صنيع ، واحفل عناية ، واحسن تصوير . فمن حق تلك الكرامة ، التي ثبتت للآدمية من مبدأ نشأتها ، أن يُرعى حقها وأن يُصان بقاؤها ، فتعالَج جراحُها ، وتداوى آلامها ، وتوارى عن العيون كل مظاهر الانسانية الذليلة المهينة ، مظهر الفاقة ، مظهر المرض ، مظهر الجهل ، مظهر الضعف ، مظهر الاستخذاء . يقول صاحب الشريعة الاسلامية ﷺ « الله الله فيمن ليس له الا الله » .

أي راقبوا الله واحذروا نقمة الله ، وعاونوا من ليس له الا الله .

نعم ، حفل المشرع الاسلامي بعلاقة الافراد مع المجتمعات ووثق بينها

الروابط والصلات حتى لقد جعل ما يصيب الآدمي الواحد – حيثما كان – يصيب ايضاً المجتمع الانساني كله، ويؤثر في كيانه. يقول تعالى: مِنْ اجْلِ ذلك – الآية من أجل جرم القاتل وجريمة القتل – كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .

فليشعر كل انسان ان الخطاب الأعلى، لا يفرق بين الافراد في الحقوق والواجبات، ولا يعفي أيّ انسان مما يحل بأي فرد من أفراد النوع كله، وان الأمة التي كتب الله لها العزة والمنعة، هي أمة، ادرك كل فرد فيها ان واجباً عليه البذل من فضل ماله، في سبيل المجتمع ووقايته، وصيانته، وصحته وأمنه وسلامته .

وما كتب الله لأمة ان تحيا الا في ظلال التعاون، وتعاون الغني مع الفقير، تعاون القوي مع الضعيف، تعاون الصحيح مع السقيم، والا فالانحلال والتخاذل والتحاقد، والشتات والتمزيق والفناء.

ليتمثل أي انسان من الاغنياء الاصحاء ان الفقر والمرض قد حاق به، وان الضّر قد نزل بساحته، أفما كان يتمنى لو بادره بالعون والاسعاف الناس أجمعون، هذا بماله، وهذا بجاهه، وهذا بعلمه، وهذا بعطفه .

بلى ان الأمر لكذلك، وصدق الله العظيم ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ) وصدق الحديث الشريف « احب لأخيك كما تحب لنفسك » .

وسُحقاً وبعداً وطرداً لذلك الغني، الذي جمع مالاً وعدده، أيحسب ان ماله أخلده، كلا لينبذن في الحطمة – النار التي تحطم العظام – جزاء له على ما كان لديه من أثرة وانانية، وان شعاره كان دائماً :

انما دنياي نفسي فاذا سلمت نفسي فلا عاش احد !

ولن تسلم له نفسه ، اذا لم يسلم له مجتمعه . يقول تعالى ( الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ) . فلنكذب وعد الشيطان ، ولنثق بوعد الرحمن .

لقد جعل الله الانفاق في المصالح العامة ، وفي وقاية النوع الانساني ( قرضاً ) لله تعالى ، والله غني عن عباده ، فأي وجدان لا يهتز ، وأية نفس لا تنفعل بقوله تعالى في طلب الانفاق ، لوقاية بني الانسان وحماية الاوطان ( مَنْ ذا الذي يُقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعِفهُ له أضعافاً كثيرةً ، والله يقبضُ ويبسطُ واليه تُرجعون ) .

الله اكبر .... الله يستقرض ؟؟.. وبيده ملكوت السموات والارض .. الله يستقرض ؟ وهو المنعم بجلال النعم وذخائر الاموال ؟!

( والله أخرجكم من بُطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعلَ لكم السمعَ والأبصارَ والافئدة لعلكم تشكرون ) .

لكن هذا التعبير بالاقراض قد وقع ، ولا بد له من حكمة ، وحكمته أن يسهل على الاغنياء المسارعة الى البذل والعطاء ، اسعافاً للفقراء ، ومطاردة لأسباب الشقاء وهم – على الحقيقة – يقرضون الفقراء ، والله كفيل برد هذا القرض ، بل رده اضعافاً مضاعفة . ومن أصدق من الله وعداً ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟؟

روي في الحديث الشريف « الفقراء عيال الله ، واحب الناس الى الله أنفعهم لعياله » . رواه ابو يعلى في مسنده من حديث انس بلفظ آخر .

وانه للطف من الله ، جبار السموات والارض رب كل شيء ومليكه ، الغني عن العالمين الفعال لما يريد، ان يرشد عباده بذلك الاسلوب العاطف ، وهذا

البيان الرفيق الذي يبرز طلب الاحسان في صورة الاستفهام دون صفة الأمر « من ذا الذي يقرض الله » .

أيكون ذلك اللطف من الله لعباده الاغنياء الأثرياء الناعمين ، ثم تجحد الاحسان قلوبهم ، وتنقبض عن الخير ايديهم ، ولا يستحون من ربهم ، ولا يثقون بوعده .... لا .... لا .. ان الغني انسان ، وان الله لآخذ بناصية هذا الانسان .

تذكر قوله تعالى ( وما تُنفِقوا من خيرٍ فلأنفُسِكُم ) تدرك ان نفع الإنفاق عائد عليك في الدنيا والآخرة ـ فهو في الدنيا يكف شر الفقراء ، ويستل سخائم الاحقاد ، ويطفىء نيران العداوة والبغضاء ، ويصحح للمجتمع اعضاءه ـ وما عند الله خير وابقى في الدار الاخرى .

ثم انظر الى مشاهد العوز ، وصور الفاقة ، وانت في هذا الموسم الروحي من رمضان ثم تدبر قوله تعالى :

« ان رحمة الله قريبٌ من المحسنين »

« وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين »

« وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

« آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير ».

« كلا ، انها لظى ، نزاعة للشوى ( جلدة الرأس ) تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . أي من أعرض عن دعوة الحق ونداء الخير وجمع المال وجعله في أوعيته وخزانته .

« انَّ الإنسان خُلقَ هلوعاً ( شديد الحرص ، قليلِ الصبر ) إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً ، واذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين ، الذين هُمْ على صَلاتهم دائمون ، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

الا قد استبان ان الذي يلقي بيده الى تهلكة نفسه ، وتهلكة أمته ، هو كل مناع للخير ، وكل عبد للمال .

***

## العـــدل

قال تعالى : إعْدلوا هُوَ أقربُ لِلتقوىٰ واتـّقـُوا الله .

ويقول ، وهو أصـــدق القائلين :

( يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لِله شهـــداء بالقسْطِ ، ولا يَجْرِمَنّكُم شنئآن قومٍ على ألاّ تعدلوا . إعدلوا هو أقربُ للتقوى واتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملونْ ) .

هذه آية من الآيات التي قام عليها دينُ الله ، وشريعةُ رسول الله ، آية تدفع بالخلق ، ليستمسكوا بالحق ، وتهيب بالناس ليقدسوا العدل، لأن الحق والعدل ، هما سر الله الذي قامت عليه السموات والارض ، وقضى ربك قديماً فجعلهـــما سببَ سعادة الافراد والجماعات، فالامم والشعوب تصلح وتنعم وتعتز وترغـَد، وتطيب لها الحياة ، ما أقامت العدل ، وما قدست الحق .

وليس شيء اسرعَ جزاء ، ولا أقربَ وقوعاً ، من جزاء الامم التي تتنكر للحق ، وعقاب الشعوب التي تنحرف عن العدل ، ان الله لا يخلف وعده ، وان سَنَنَ الله لا يتبدل ، وهو جلت حكمته ، وعظمت قدرته ، أصدق من وَعَد، واقدرُ من أوْعد ، فأيمَّا امةٍ ، هان الحق فيها ، وانطمس العدل لديها ،فلترقب

خزي الدنيا انحلالاً وهواناً وهلاكاً ، وعذاب الآخرة ندماً وحسرةً ومهانةً وسعيراً .

لهذا أعذرَ الله لعباده ، فأمرهم أن يقوا أنفسهم وأمتهم وجنسهم هلاكاً ودماراً ، امرهم ان يكونوا ( قوّامين لله ) ـ أن يُقبلوا على الحق والعدل والخير ، وعلى الطاعة والمعروف ، وعلى البر والاحسان ـ يقبلون على ذلك كله بقوة وعزم ، وصدق توجه ، إطاعة لله ، وخوفاً من عذاب الله ، لا يتباطؤون ولا يترددون ، ولا يقصرون ولا يتهاونون ، بل يقومون على شئون الدين والدنيا بجد ودأب ونصب وبذل وصبر حتى تثمر أعمالهم ثماراً كاملة صحيحة ، لا نقص فيها ولا عوج ، اما من يفعل الخير مرةً ، ثم يكُف عنه مرات أو من يستمسك بالحق يوماً ، ويصد عنه اياماً ، ومن يعدل فترة ويجور فترات فليس ذلك بقوام لله ، لأن هذه الصيغة الواصفة لكل مؤمن حقاً أفادت الدوام والاستمرار ، ومواصلة العمل ، وشدة المراقبة ، ومن عرف ربه ، وشعر بأنه مطلع عليه يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، كان دائم اليقظة عظيم الشعور ، كان كل عمله لله ، وكل تفكيره في رضاء الله .

والشهادة بالقسط ـ الشهادة بالعدل ، فالقسط معناه العدل ، وان التكاليف الإلهية على اختلافها وتعددها ، تنحصر في أمرين : الاول تعظيم ذات الله ، وإطاعة امر الله ، والامر الثاني حسنُ المعاملة لعباد الله شفقةً بهم ، ورحمة لهم ، فالامر الاول ـ تعظيم ذات الله ـ اليه الاشارة في قوله ( قوامين لله ) والامر الثاني ـ معاملة عباد الله بالحسنى ـ اليه الاشارة في قوله ( شهداء بالقسط ) فلا يحابي الانسان اهل وده وقرابته ، ولا يكتم او يحرّف الشهادة لاعدائه ومخالفيه .

ثم قال تعالى : ( ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألاّ تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى ) لا يجرمنكم ـ لا يُكسبنّكم ذنوباً ، ولا يُحَملنّكم ، فجرم معناها حمَل او كسب ـ

يقال جرم ذنباً ـ كسب ذنباً ، ومنه الجريمة . ( شنئان قوم ) شدة بُغضكم لهم أو شدة بُغضهم لكم ، فالشنئان شدة البغض ، لا يحملنكم ذلك على ترك العدل معهم ،وفيهم ، فالعدل ، في كل الامور ، وفي كل الحالات ، ومع الاعداء والاولياء والاحباء ، اقرب وادخل في معنى التقوى ، لان الانسان العادل ، يصير بعدله في الناس – في وقاية من معصية الله ، ومن غضب الله ، ومن عذاب الله .

ولهذا امر الله بالعدل مرة أخرى ، أمراً مطلقاً ، صيانة للنفوس وللمجتمعات من الظلم . الظلم الذي يهلك الامم ، ويبيد الشعوب ، فقال تعالى (اعدلوا ) ايها الناس في احبابكم ، واعدائكم ، في الأقربين منكم والأبعدين عنكم ، حتى تتقوا الهلاك الواقع بالظالمين . ولا يصون الوجود ، ويحمي الذمار ، ويحرس الممالك والأمم الا العدل ( هو اقرب للتقوى ) . هو العدل ، المفهوم من سياق الآية يقربكم بل يدخلكم في وقاية من العذاب ومن الدمار .

ولقد انذر الله تارك العدل ، بأنه سبحانه وتعالى مطلع على ما يقترفه ، لا يخفى عليه شيء منه ، فقال تعالى تهديداً ووعيداً ( واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون ) فهو محاسب على الاعمال ، وعلى النيات وان خفيت ، فلا تأمنوا ايها الظالمين ، عقبى ظلمكم وجوركم .

وأصل العدل التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، والعدل رأس الفضائل كلها ، فالشجاعة عدل وتوسط بين التهور والجبن ، والجود عدل وتوسط بين البخل والتبذير . ( ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ) .

والعدل ، ميزان الله المبرأ من النقص ، والذي قامت عليه السموات والارض ، وقام عليه نظام المجتمعات ، قال تعالى : ( والسماء رفعها ووضع الميزان ) فالميزان هو العدالة ، وقال عليه الصلاة والسلام : ( بالعدل قامت السماء والارض ) فهذا الحديث يشير الى أنه لو زاد شيء من العوالم ، على ما هو قائم به ، أو نقص شيء

مما هو كائن فيه، لاختلّ واضطرب النظام كلّه ولهوت الكواكب أو اصطدمت النجوم ، لكن العدل الإلـهي المبثوثَ فيها ، قضى بنظامها وإحكامها : ( لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ) .

وان من أسرار العدالة ، فيما تقوم عليه اعمال الناس ، أن الجور نفسَه ، لا يقع وهو متوارٍ في ظلال من العدل ، فلو أن لصوصاً ، اشترطوا فيما بينهم ـ وهم يقتسمون ما سرقوا ـ شروطاً ثم لم يرعوها عند القسمة ، لم ينتظم لهم أمر ، ولم يتمّ لهم الانتفاعُ بما سرقوا ، لأنهم فرطوا في العدالة حتى في قسمة ما يسرقون ، ومن الجزاء ما يرجأ في الدنيا ليكون نكالاً في الآخرة ولكن جزاء البغي في الامم عاجل في الدنيا ، وفي الحديث الشريف ( لو بغى جبل على جبل لذل الباغي ) .

وانك لتدرك في صور العدل التي تبدو في المخلوقات طمأنينة في النفوس ، وحسناً في العقول ، وراحةً في الخواطر ، وان النفس لتتألم اذا شاهدت منظراً لا يجري على نظام ، ولا يلوح فيه تناسق ، ان النفس لتنقبض لمناظر العَوَر والعَرَج ، وتزورُّ للنقص الذي يطالع الانسان من تلك الصور ، وكذلك تنقبض النفس لمناظر الجور ومشاهد الظلم ، وان من عدل الله في الخليقة ان جعل أعضاء الانسان في أطرافه زوجين اثنين ، وفي الأوساط واحداً ، والمثالون والمصورون والنحّاتون ، يجعلون العدالة اساس فنهم ، وميزان إبداعهم ، فاذا اختلفت الصورة ، أو اعوجت ، ولم يراع فيها العدل ، صارت نابية ، وبرز منها الجور — الخروج عن الحدود .

والعدل في الواجبات من أشد ما يُعنى به ذوو النفس الكبيرة ، والرسلُ والقادةُ والمصلحون ، لقد كان عليه السلام يقول: شيبتني هودٌ واخواتها ، فقيل له ما الذي شيَّبك منها؟قال قولـُه تعالى: **( فاستقم كما أمرتَ ومن تاب معك**

ولا تطغوا) فالطغيان جور ، والاستقامة عدل . ومراعاة ذلك عظيم شديد ، تشيب منه النواصي .

ولقد كان سفيان بن عيينة يقول : « ان العدل استواء السريرة والعلانية » وإنا لنشهد من الناس ظالمين ، يطلبون — او يدعون كمال انفسهم بتنقيص غيرهم — تنقيص الرجل الكامل فيهم ، وان هذا لظلم عظيم .

ولقد أنجب المجتمع الاسلامي الاول الرجلَ العادلَ ( عمر بن الخطاب ) وأبرز الإسلام عدالته إبرازاً مثالياً طبق الدنيا ، وأبقاه في الخالدين .

ان الدنيا والتاريخ والفتوح الاسلامية الباهرة ، تعرف من هو خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول ، لقد كان من أبناء خؤولة عمر ، وكانت ضخامة صيته ، وضخامة انتصاراته ، حرية ان تغفر له عند عمر ، هفوة من الهفوات ، أو زلة من الزلات ، فلما تألق خالد في فتوح العراق والشام ، ثم فتح (قِنَّسرين) انهالت الغنائم والأسلاب ، سيلاً دفاقاً ، فكان خالد يعطي منها بسخاء على مقدار البأس والشرف والبطولة ، فأعطى الاشعث بن قيس عشرة آلاف درهم ، وبلغ عمر الأمر ، فغضب وأمر أبا عبيدة أن يستقدم له خالداً ، وان يعقله بعمامته ، حتى يعلم أأجاز الأشعث من ماله أم من مال المسلمين؟ فان زعم انها من مال المسلمين فقد اقر بالخيانة ، وان زعم انها من ماله فقد أسرف . ثم لم يرض عمر آخر الأمر الا بعزل خالد .

ويُعزل خالد ويذهب الى خليفة المسلمين في المدينة ، تاركاً مجده وصيته وشهرته ، متنحياً عن كل شيء طاعة لخليفة المسلمين ، ثم يعاتبه عمر ، فيقول له : « يا خالد . والله انك عليّ لكريم ، وانك اليّ لحبيب ، ووالله انك لسدّاد في

نحور العدو ، وانك لميمون الثقة . ولقد أمرتك أن تحبس المال على ضعاف المهاجرين، فأعطيتَ ذا الشرف وذا اللسان؛ لهذا امّرت عليك ابا عبيدة. فيسمع خالد ويطيع ، لا يتنكر لعمر ، ولا يفتنه تعلق الجماهير به . بل يتطامن ، ويهدأ ، ويدع لعمر الأمر يفصل فيه كما أراه الله .

هكذا شاءت العدالة الاسلامية العمرية ان تحاسب العمال ، وان عَلوْا وان عزّوا وهكذا يرضى بهذا المصير خالد في سبيل جمع الكلمة، وتوقير امير المؤمنين ، ولأجل ان يعظم في الناس امر عمر ، وان تنبسط على الدنيا ظلال عمر ، وعدلُ عمر ، ولتعلوا الرايةُ الاسلامية في آفاق الأمصار على أيدي مسلمين لا يغضبون لأنفسهم ، ولا يتفرقون وراء الحطام ، ولا يشقون عصا الطاعة خوفاً من الفرقة .

لقد كان العدل العمري مبسوط الرواق ، حتى مع الذين لا يحبهم عمر ، ولا يجد من نفسه ميلاً إليهم ، قال عُمر مرةً لأبي مريم السَّلُولي : ـ والله لا يحبك قلبي . فقال له أبو مريم : افتمنعني لذلك حقاً من حقوقي ؟ قال عمرُ : لا. فقال أبو مريم : اذن فلا ضير ، انما يأسى على الحب النساء .

فهذا هو العدل في المحبة وفي البغضاء ، لا يحمل الكرهُ الانسان على ان يبخس الناس اشياءَهم ولا على ان ينكر عليهم حقوقهم ، ولا على ان يجردهم من فضائلهم .

ألاَ من شاء ان ينعم بعدل الناس معه ، فليكن هو عادلاً فيما بينه وبين الناس ، ولا شيء أسرع عقاباً ، ولا أشد نكالاً ، من عقاب الله على البغي وعلى العدوان ، شرح الله صدورنا بالعدل ، وجنّبنا مصارع البغي .

## العيد الاكبر للمسلمين

يقول أصـــدق القائلين : ( اليومَ أكْملتُ لكُمْ دِينكم ، وأتممْتُ عليكمُ نِعمتي ورَضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً ).

في يوم جمعة ، وفي يوم عرفة من العام الذي حج فيه صاحب الرسالة سيدنا محمد ﷺ ، وفي السنة العاشرة من الهجرة نزل قوله تعالى :( اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ). وكان – عليه السلام – ساعة نزولها ، واقفاً على الجبل ، رافعاً يده ،يدعو الله ،والمسلمون يدعون معه . ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : – « انها انزلت على النبي ، وهو واقف على الجبل يوم عرفـة ، فلا يزال ذلـك اليوم عيداً للمسلمين مـا بقي منهم احد » .

وهكذا شرع الله العيد الأكبر للمسلمين غداة يوم عرفة . بعد نزول هـــذه الآية ، وانه لعيد يذكر بأكرم الذكريات ، وأحبها وأعزها ، انه عيد مؤذن بأن الله قد صدق وعده ، وأعز اولياءه ، وحقق آيتـه الكبرى ( كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز ) فهو عيد الحق الأبدي ، عيـــد الفضيلة الخالدة ، عند تمام النعمة ، وكمال التشريع ، عيد إذاعـــة العزة الاسلامية في

ارجاء الارض .

وانها لثلاثة وعشرون عاماً من يوم بعثته ﷺ الى العام العاشر للهجرة والمسلمون يجاهدون ويناضلون ، ويدفعون في صدر الباطل ، فطوراً ينكلون بأعدائهم ، وطوراً تحل بهم المحن والشدائد . وتلك الايام نداولها بين ، الناس وكلما اشتدت الاهوال وعظمت الخطوب ، يبدو للمسلمين الصابرين ضياء النصر ، ويلوح لهم علم الاسلام خفاقاً ، من وراء السنين والاعوام والايام والليالي التي يطويها الحاضر تطلعاً الى المستقبل .

فلما ان تمت الرسالة ، وبلغت الشريعة غايتها ، وظهر الحق ، وعلت كلمة الله ، وفتحت مكة ، وانهزم الشرك ، ودكت حصونه ، وطُهِّر البيت المقدس من رجس الاوثان ، ثم اجتمع العديد الأكبر من الحجيج ، وكلهم موحد ، وكلهم اسلم وجهه لله الواحد القهار ، ليس بينهم مشرك دنس العقيدة ، ولا فاجر خالع لزمام الفضيلة، اجتمع هذا الحجيج الزاخر اول مرة وآخر مرة في حياة محمد ﷺ وعليهم اردية الاحرام ، عليهم جلالة ، ولهم عزة ، وفيهم بطولة الدين والدنيا . هناك ، اسمعهم رب العزة بشراه لهم بأن الشرك قد تبددت قواه ، وانه لم يعد للمشركين من خطر ولا شأن لا على الاسلام ولا على المسلمين ، وان اليأس والانهيار قد أتيا على كل أثر للمشركين : ( **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم ، واخشون** ) .

***

انما قصد المشرع الاسلامي بالعيد ، ان يطلع على الدنيا يوم تذكر فيه عزة الحق ، وجلال النصر ، نصر الفضيلة ، وجمال العقيدة . وان تتضمن غدوات العيد وروحاته ، وأصائله وبكوره ، معاني الشكر لله على

انعمه ، اذ بدل المسلمين من ضعفهم قوة ، ومن قلتهم كثرة ، ومن خوفهم أمناً :

( واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرضِ تخافونَ أنْ يخطفكمُ النّاسُ ، فآواكمُ وايدّكمُ بنصرِهِ ورزقكمُ مِنَ الطيباتِ لعلّكمُ تشكُرون ) .

لقد أراد المشرع ان يبدو يوم العيد ، صورة للمجتمع العادل ، يتألق في وجوه المعيدين رواء الخير والبر والاحسان ، فتخفى مناظر الشقاء ، ومظاهر البأساء ، فالعيد الاسلامي عيد النفس الشاكرة الذاكرة ، لا عيد النفس اللاهية العابثة .

***

لم يحرّم الدين الاسلامي في العيد لهواً بريئاً ، ولا استجماماً واستراحاً ، ولا زينة ولا متاعاً ( قُلْ مَن حرّم زينة اللهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطيّباتِ مِنَ الرزقْ ) ولكنه يأبى ويحرم ان ينخلع المرء من قيود الفضيلة ، ومن آداب المجتمع ، فيسترسل في العبث والمجون ، حتى تنتكس نفسه ، ويتبلد حسه ، وينسى انه عيد الشكر على النعمة ، وليس عيد الجحود للحق ونسيان ما فرضه الله من حق معلوم للسائل والمحروم .

لقد كان سلفنا الصالح يتقرّبون الى الله بصالح الاعمال . جهاداً في سبيله ، وبذلاً في رضائه وصدقاً في طاعته ، واستقامة على الطريق القويم ، فكشف الله

عنهم البأساء والضراء ، وصدق الله العظيم :

( ومَنْ أعرض عن ذِكري فإنّ لَهَ معيشةً ضنكاً ) وصدق الله العظيم : ( ولوْ أنّ اهلَ القرىٰ آمنوا واتقوْا لفتحنا عليهِم بركاتٍ مِنَ السماء والارضْ ) .

***

# الله أكبر

يقول عزت آياته ( وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ) أي قل ، يا محمد : ( الله اكبر ) صادرة عن اعتقاد ويقين ، ان كل ما في الكون من عوالم ، وكل ما في الدنيا من جبابرة وطواغيت ، وكل ما يعرض في الحياة من أحداث وخطوب فالله اكبر منها ، والله متصرف فيها ، والله حاكم عليها . ولقد نزلت هذه الآيات : ( يا أيها المُدَّثِرْ ، قُمْ فأنذرْ ، وَرَبكَ فَكَبِّر ) نزلت بعد ان فتر الوحي زمناً ، واشفق عليه الصلاة والسلام من جلال ما رآه ، وخَشِيَ على نفسه ، وجاء الى خديجة يرعد ويقول ( زملوني ، دثروني ) اجعلوا فوقي غطاء ، وزيدوني دثاراً ، واوسعوني قراراً ، حتى يؤوب اليّ هدوئي ، بعد الهول الذي عرض من لقاء جبريل والاستماع الى الوحي .

رُويَ انه لما نزلت الآية ( وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ) قام ﷺ وقال ( الله اكبر فكبّرتْ خديجة وفرحت ، وعلمت ان الوحي قد استؤنف ، وانه روح القدس يعود اليه :

( ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى ، وَلَلآخرَةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأولى ، وَلسوفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فترضى ) .

ولقد صارت كلمة (الله اكبر) شعاراً لمكافحة الاهوال ، وعدة للاستشراء في سبيل الله ، كلمة تملأ قلب المؤمن شجاعة وإقداماً ، وتفيض عليه يقيناً وثباتاً ، حتى ليستقبل الموت الأحمر و (الله اكبر) درعه وحصنه ، بها ينافح ، وبها يصول ومن اجلها يدافع عن رأيه وعقيدته لا يهن ولا يضعف ، ولا يستكين

وهي شعار الامة الاسلامية ، بل هي الدعامة الأولى التي قامت عليها عظمتها ، فحطمت امامها صروح الشرك صرحاً صرحاً ، وبددت كل طاغوت منها بدداً بدداً ، فلم يعد المؤمن الموحد يرى في الخلق سيداً تخضع له الاعناق ، ولم يبق بين الناس من إله او نصف إله ( إنمَّا الله إله واحد ) عنت لعظمته الوجوه كلها ( وَلَهُ الكبرياءُ في السَّمواتِ والأرض ) .

وإن المؤمن ليفتتح بها صلاته ، ثم يتنقل بها بين اركان الصلاة ، ويفعل ذلك خمس مرات في اليوم والليلة ، وانه ليهتف بها ، ولروحه على شهواته السلطان ، وعشية ينتهي رمضان وفي ليلة العيد ويوم العيد . ثم يهتف بها ايام التشريق ، ويهتف بها وهو يطوف بالبيت العتيق بيت الله الحرام ، يهتف فيقول ( بسم الله الله اكبر ) اعلاناً عمّا وقر في نفسه ، من استصغار نوائب الدنيا ، واحتقار ما يعرض في سبيل الحق ، واذعاناً واخلاصاً لله الواحد القهار . فتتكون في النفس ملكة الشجاعة والاستبسال ، لا يرى المؤمن لغير مولاه سبحانه سلطاناً على ضميره ولا تحكماً في وجدانه ، وانه ليقولها فيزداد ثقة بوعد ربه ، ونصر كلمته ، مهما عدت العوادي ، واشتدت المحن ، ونزلت الكروب . وليس يلفظ المؤمن ( الله اكبر ) إلا وهي منطبعة في مضمر الفؤاد ، عنها يصدر الانسان ، ومنها يرد ويستمد .

اشتد الكرب يوماً ببعض الصحابة — رضوان الله عليهم — فجاء الى رسول الله ﷺ وهو جالس امام الكعبة ، فقال له يا رسول الله : ادع على الباغين الجاحدين ، فقال له — عليه السلام — الله اكبر ، والذي نفس محمد بيده ليُتمِنَّ اللهُ هذا

الأمر ، حتى ان الراكب من صنعـــاء الى حضرموت ، لا يخشى على نفسه الا الله .

ارأيت كيف يقول – ﷺ – وقد تألبت عليه القوى ، واستعدَتْ عليه قريش احلافها ، وكاد يتدخل اليأس قلوب الضعفاء ، انه قالهـــا كلمة مدوية طوت الدنيا امام عينيه ، ووسعت ما بين المشرق والمغرب ،لأن كل ذلك ، وان كبر وعظم وتفاقم ، فالله اكبر واعظم ، والله من ورائهم محيط ، ولن تجتمـــع تلك الكلمة الرائعة ( الله اكبر ) في قلب مؤمن ويجتمع معهـــا جبن او نفاق ، او تردد أو يأس او قنوط .

قال عليّ – كرم الله وجهه – لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي – ﷺ – وهو أقربنا الى صفوف العدو ، وكان من أشد النـــاس بأساً ، وكنا اذا اشتد البأس ، ولَقِيَ القومُ القومَ ، اتقينا برسول الله – ﷺ –.

وقال عمران بن حصين رضي الله عنه : – ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة الا كان أول من يضرب ، فلما غشيه المشركون ، جعل يقول : «الله اكبر . انا النبي لا كذب ، انا ابن عبد المطلب» ، فما رؤي يومئذ احد كان اشجع منه .

على تلك الكلمة وحدها تدارك الله دينه بيد الصديق رضي الله عنه، في ساعة ذاهلة عصيبة ، ساعة سكون الانفاس الطاهرة الزكية المحمدية ، فما كاد يتسامع الناس موت رسول الله ، حتى روّعهم المصاب ، فهم بين مصـــدق ومكذب ، وبين منكر ومستعظم ، وارتجت جنبات المدينة ، وكاد الأمر يضطرب ، وكاد الغزل ينتكث ، وقال عمر من فرط ما دهاه : ما مات محمد ، ولكنه ذهب الى ربه ، وسيعود كما ذهب موسى وعاد الى قومه .

واما عليّ بن ابي طالب فلزم داره آسِفاً حزيناً ، حيران مروعـــاً ، وسار عثمان بن عفان هائماً في طرقات المدينـــة . ووسط تلك الرجفـــة الكبرى ، هتف

ابو بكر الصديق ( الله اكبر ) ودخل دار رسول الله ﷺ ، وهـــو مسجى ، ورفع الغطاء عن وجهه الشريف وقبله ، وقال: بأبي انت وامي يا رسول الله ، لقد طبت حياً وميتاً . ثم خرج يرد الى الناس أخلاقهم ، ويعيد إليهم رشادهم ، ويقول : ايها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فـإن الله حي لا يموت .

( وما محمدٌ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قبلِهِ الرُسُلُ أفئنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُمْ على أعقابِكمْ ، وَمَنْ ينقلبْ على عَقِبيه فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً ، وسيجزي اللهُ الشاكرين ) قال عمر : فكأني لم اسمعها الا من ابي بكر !

بتلك اليقظة النفسية ، وهذا الشعار الوثاب ( الله اكبر ) ملك المسلمون نواصي الأمور ، لا يرون في شيء من الاحداث وان جـلَّ وعظم ، الا انه شحذ للعزائم ، وإرهاف للهمم . لا يستعظمون الا الله وحـــده ، ولا يرون الخضوع والاستكانة الا امام جلاله ، وفي سبيله .

واذا كان ( الله اكبر ) شعار المسلمين ، وهتافهم في صبحهم ومسائهم ، فما بال أقوام من المسلمين يستخذون ويستكينون ، امام مخلوق ، لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ما بالهم يحتقرون انسانيتهم ، ويذهلون عن عقيدتهم ، وينكرون ذواتهم ، في مجلس مخلوق هو في قبضة الرحمن ، يصرفه كيف شاء .

ليس البر ان يتشكل المسلم بأشكال المسلمين ، ولا أن يرتدي شعار المسلمين ، ولا ان يتسم بسيما المسلمين ، ولكن البران يشعر قلبه عظمة الله ، والا يخشى احداً سواه . حتى لا يصدر عنه قول ولا فعـل الا وهو موقن بما هو ناطق ( ان الله اكبر . وان الله اعظم ) .

فيا من يخشون الناس، والله احق ان يخشوه. كونوا كأولئك المسلمين الاولين:

( ألذّينَ قالَ لَهَمْ الناسُ إنَّ الناسَ قَــدْ جَمَعوا لَـكُم فاْخشَوهُم ، فزادَهُم إيماناً وقالوا حَسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفضلٍ لَمْ يمسَسْهُمْ سوءٌ ).

ألا لا يستعظمنّ المسلمُ حدثاً من الاحداث فإن الله اكبر . ألا وليضْرِبْ في صدور الخطوب فإن اللهَ اكبر !

# الشكر يديم النعمة والكفر يذهبها

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان ثلاثة في بني اسرائيل ، أبرص ، وأقرع ، واعمى ، فأراد الله تعالى ان يبتليهم – يختبرهم ويمتحنهم – فبعث اليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، فقال : أيُّ شيء أحبُّ اليك ؟ قال لون حسن، وجلد حسن ، ويذهب الذي قد قَذِرني الناس ! فمسحه الملك فذهب عنه قَذَرُه ، وأُعطي لوناً حسناً ، وجلداً حسناً . قال له الملك :فأيُّ المال أحبُّ اليك ؟ قال : – الأبل ! فأعطي ناقة عشراء وشيكةَ أن تلد وإنها لأنفَسُ الإبل .فقال له الملك : بارك الله لك فيها .

ثم أتى المَلَكُ الرجل الثاني وهو الأقرع ، فقال: أي شيء أحبّ اليك ؟ قال : شَعَرٌ حسن ، ويذهب عني هذا الذي قد قَذِرني الناس ، فمسحه الملك فذهب عنه قَذَره ، وأعطيَ شَعَراً حسناً . قال له الملك : فأي المال احب اليك ؟ قال: البقر . فأعطيَ بقرة حاملاً ، فقال له الملك : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الملك الرجل الثالث ـ وهو الاعمى – فقال : اي شيء أحبّ اليك ؟ قال :أن يرد الله الي بصري فأبصِرَ به الناس ، فمسحه الملك فرد الله بصره ، فقال له الملك: فأي المال أحبّ اليك ؟ قال:الغنم . فأعطي شاة ولوداً . فأنتج هذا ، وولّد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الابل ، ولهذا وادٍ من البقر ،

ولهذا وادٍ من الغنم .

قال عليه الصلاة والسلام : ثم انه ـ أي الملك ـ أتى الابرص ، في صورة رجل ابرص ـ كصورته وهيئته ـ قبل أن يبرأ ، فقال له : اني رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم الا بالله ، ثم بك ، اسألك بالذي اعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن والمال ، ان تعطيني بعيراً ، أتبلغ عليه في سفري ، فقال له : الحقوق كثيرة ؟؟ فقال له الملك في صورة الرجل الابرص : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرصَ يَقْذَرُك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ، قال له : انما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال له الملك : ان كنت كاذباً فصيرك الله الى ما كنت ؟؟

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ واتى الملَكُ الرجلَ الثاني في صورته وهو أقرع . فقال له مثل ما قاله لهذا ، ورد عليه بمثل ما رد عليه ، فقال الملك : ان كنتَ كاذباً فصيرك الله الى ما كنت .

قال ـ عليه السلام ـ وأتى الاعمى في هيئته وصورته ، فقال له : رجل مسكين ، وابنُ سبيل انقطعت بي الحال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم ، الا بالله ، ثم بك ، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك ، شاةً اتبلغ بها في سفري ، فقال له : قد كنت أعمى ، فرد الله اليّ بصري ، فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ! فوالله لا أَجْهَدُك اليوم شيئاً أخذتَه لله ( لا أشق عليك بردّ ما تأخذه ) ـ فقال له الملك : امسك عليك مالك فانما ابتليتم ـ اختبرتم أنتم الثلاثة ـ فقد رُضِيَ عنك ، وسُخِط على صاحبيك ، ( أو كما قال رسول الله ﷺ ) .

حديث صحيح كاشف عما تنحط اليه بعض النفوس . اذا هي شَبِعتْ بعد جوع ، وصحَتْ بعد سَقَم وحُسنت بعد قبح . نفوس تنسى نعمة الله عليها ، ورحمته بها وانقاذه لها ، فذاقت وبال امرها ، وصدق الله العظيم :

«وإذا أنعمْنا علىٰ الإنسانِ أعْرَضَ ونأى بجانِبه وإذا مسَّهُ الشَّرُ فذو دعاءٍ عريضْ».

فالبِدار البِدار الى الخـــير والى البر والى اسعاف الناس، فكل متاع زائل، (وَما عِنْدَ اللهِ خيرٌ وأبقىٰ).

***

# الطُّهور شطر الايمان

**« حديث نبوي شريف »**

روى مسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ « الطّـهور شطرُ الايمان ». الطّـهور الطاهر في نفسه ، والطهارة معناها النظافة ؛ وان النظافة لأصل من اصول ديننا، بل جعلها الحديث الشريف شطر الايمان ،فكل من فقد الطهارة او النظافة ، فهو فاقد شطر ايمانه : فالصلاة ايمان بتوحيد الله وحمده وشكره ، ولا صلاة لمن لا يتطهر ويتنظف .

إنّ المشرع الاسلامي عنى أشد العناية في الكتاب وفي السنة بتعظيم شأن النظافة ، وأعلى قدرها ، حتى لقد شرف المتطهرين المتنظفين فجعلهم احباء الله: قال تعالى : ـ ( فيه رجالٌ يُحبُّون أنْ يتَطهَّروا والله يُحِبُّ المُطَّهرين ) . وقال : ( إنَّ اللهَ يحب التّوابينَ ويُحِبُّ المُتَطهِّرين ) وان صيغة (المطهرين) و ( المتطهرين ) ، تدل على المبالغة في التنظيف ، والحرص على النقاء من دنس .

ولقد شرط الشارع للعبادات كالصلاة والطواف الطهارة والنظافة ـ نظافة البدن بغسل اعضاء الوضوء ، وتنظيف الفم والانف ، كما اشترط ايضاً للصلاة طهارة الثوب وطهارة المكان ،واوجب الاغتسال على من ألم به الحدث المعروف،

والاغتسال إفاضة الماء على البدن كله ، بل يندب تدليك الجسم عند الاغتسال .

والمشرع أوجب على المرأة المسلمة ان تطهر بدنها وتنقيه من آثار الولادة والنفاس ، كما أوجب أن تتطهر وتتنظف في أعقاب الدورة الشهرية التي تلم بها .

والاحاديث النبوية تؤكد غُسل الجمعة كل اسبوع ؛ تمهيداً للاجتماع الذي يقام بالمساجد ، كما انها تؤكد تنظيف الفم والأسنان بالسواك وبكل ما هو كالسواك من أدوات التطهير .

والاسلام يأمر أمراً شاملاً بتنظيف الثياب وتطهيرها وتنقيتها ، يقول اصدق القائلين : ( وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ) .

واذا تتبعنا سيرة صاحب الشريعة – عليه السلام – وشمائله رأينا مثالاً عالياً في النظافة والنقاء ، في المأكل والمشرب والملبس والمأوى ، حتى في النعال التي تصون القدم .

فالمسلم لا يكون في جميع الاحوال الا نقياً نظيفاً طيباً مطيّباً ، حسن المظهر جليل السَّمْت .

وان رسول الله ﷺ قد حذّر ان تحل لعنة الله وطرده على من دَنَّس الماء الذي يَرِدهُ الناس ، ويستقون منه ، أو دنّس الطريق الذي يسلكه الناس ، أو دنس الظل الظليل الذي يأوى اليه المتعبون في شدة القيظ . روى معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : – اتقوا الملاعن الثلاث : البرازَ في الموارد وقارعةِ الطريق والظل . وروى مسلم وابن ماجه

والنسائي عن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ نهى أن يُبال في الماء الراكد .

اذا كان للمنطق حكم ، وللمسببات اسباب ، فلقد حق ان تكون الأمة الاسلامية انظف الأمم جمعاء ، لأن دينها يوجب عليها ذلك، بل ان الهدي النبوي ليُسِنُّ لنا أن نتطيب ، وان لا نسبب التأذي لإخواننا في المساجد اذا ما اجتمعنا . روى أبو داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ومَس من طيبٍ ، ولَبِسَ صالحَ ثيابه ، ثم لم يتخط رقاب الناس ، ولم يلْغُ عن الموعظة كان كفّارة لما بينها » أي بين يومي الجمعة .

ليست مظاهر النظافة الشرعية في جديد الثوب ، ولا غالي الملبس ، وانما أدوات النظافة الماء – الذي يقول فيه جلت قدرته : ( وانزلنا من السماء ماء طهوراً ) .

اما وقد تبين لنا ان ديننا ، وهدي نبينا ، يجعلان النظافة اصلاً من اصول الاسلام وشطراً للإيمان . فالبائع المتجول الذي يهمل نظافة جسمه وثوبه وأدواته ، ويدع الذباب والاقذار تتجمع على ما بين يديه من طعام او شراب او فاكهة ، او سلعة ، هو آثم في نظر دينه ، مخالف لهدي نبيه .

وصاحب المطعم الذي لا يعنى بنظافة الأوعية وتطهيرها ، ولا تنقية الأغذية واختيارها ، ولا بفرش المائدة ، ولا بمرافق الطهارة ، ولا بوسائل الوقاية . هو آثم في نظر دينه . مخالف لهدي نبيه .

واصحاب القرى والأكواخ التي تتجمع حولها القمامات وتتكدس بينهم الأوحال ، وهم يزيدون على ذلك القاء الماء الآسن ، ونفاية الأطعمة والأشربة من

النوافذ . هم جميعاً آثمون في نظر دينهم ، مخالفون لهدي نبيهم .

والذي يحضر يوم الجمعة متأخراً ، فيتخطي الرقاب ، ويلوث ملابس المصلين ، يؤذيهم برائحته وأدرانه ، آثم وربما ذهب ثواب صلاته .

فيا ايها المؤمن : حقق ايمانك بالنظافة ، وكمل ايمانك بالطهارة ، واستجلب بذلك رحمة الله ، ومحبة الله ، ان الله يحب المتطهرين .

***

# الفرقة والشتات خروج من قيود الاسلام

**« حديث نبوي شريف »**

روى الإمام احمد وابو داود والحاكم عن ابي ذر . قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ فارقَ الجماعةَ شِبْراً ، فقدْ خلَع رِبقة الاسلامِ مِنْ عُنُقِه حتى يراجعه .

صاحب العقيدة الاسلامية ، يجعل بينه وبين الإسلام عقداً أن يأتمر بأوامره ، وينتهي عن نواهيه ، يجعل لنفسه عروة محكمة في حبل الإسلام ، هذه العروة — او الربقة — كما سماها الحديث لأن الرِّبقة هي العروة لغةً ، والرِّبقُ هو الحبل. هذه العروة ينقضها ويحلها خروج الفرد على الجماعة ، ومفارقته لما اجتمعوا عليه ، وحينئذ ينفصل الانسان من الاتصال بحبل الاسلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كل من خالف عن إجماع الامة أية مخالفة ، وكل من ابعد عن الجماعة ايّ إبعادٍ ولو كان في ضآلته يوازي في المسافات مقدار شبر ، فهو رجل قد فصم عروته ، أو خلع الرباط الذي يربطه بحبل الاسلام ، وبمبادىء الاسلام . وقد جعل الحديث الروابط الاسلامية ممسكة بأعناق المسلمين ، إعظاماً لها ، وتشدُّداً في المحافظة عليها ، وإظهاراً لمعنى الانقياد لها ، والخضوع عندها .

وقد أشار الحديث الى انّ مراجعة الخارج على الجماعةِ نفسه لكي يعود اليها

ويندمج فيها – هو أمر يردّ الاعتبار الاسلامي ، ويعيد صلة الفرد الى ما كانت ، وذلك حتى لا يحطم اليأس نفوس النافرين الناشزين .

ان الإسلام يأمر باتحاد واتفاق كل قوم تضمهم ارض واحـــدة ، ويحكمهم قانون واحد ، وان اختلفت دياناتهم ، وتباينت أجناسهم ، لأن الدين اذا ميّز العبادات ، وحدد العقائد ، فان الوطن يجمع الكل ، والمصالح تضم الشتات .

والإسلام دين عام تتسع أوامره ونواهيه ، حتى تعم أتبـــاع الملل وأبناء الطوائف ، الذين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، والذين يشاركوننا في حلو الحياة ومرها ، وبأسائها وضرائها .

واذا كان الاسلام ديناً خاصاً من ناحية العقائد والشعائر والعبادات ، فهو دين عام ، ونظام شامل في الاجتماعيات والمعاملات والنظم والادارات ، ولما يدعو الى الوحدة في عباداته ، يدعو الى الجماعة في سياساته ومعاملاته .

يقول صلى الله عليه وسلم: ( الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ) وهذا معناه ان اجتماع المسلمين على عقائد دينهم رحمة بهم ، وتفرقهم شيعاً واحزاباً عذاب حالّ عليهم . ومعناه ايضاً ان توحيـــد الآراء في السياسة والاجتماع والمعاملة رحمة للمسلمين ولكل من تقله ارض الوطن ، وتظله سماؤه على اختلاف الأديان والنحل ، وان افتراق الكلمة ، والجري وراء الأهواء عذاب وشقاء لكل أولئك وان اختلفت الأديان ، وتباينت العقائد .

ليس كل اختلاف شراً ولا اثماً ، فان من طبيعـــة البشر أن يختلفوا ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقـــد فطر الله البشر على ذلك ( ولا يزالونَ مُختلفينَ الاّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ ولذلك خلقهم ) وذلك مبعثه اختـــلاف الأفهام وتباين العقول ، ولا مطمع في ان تتوحد العقول البشرية ، ولا ان تستوي المدارك الانسانية ، فالاختلاف هنا طبيعي ، هو كالحب والبغض ، والأخوة في بيت واحد ، ومن منحدر واحد ، يختلفون امام الشيء حبـــاً وبغضاً ، لأنهم

يختلفون ادراكاً وفهماً. ولا بأس من هذا الاختلاف فان من وراء تشاجر الآراء، انبعاث نور الحق المبين .

لكن الاختلاف الذي يباين هدى الاسلام، ويقذف بالانسان وراء حدوده، هو الاختلاف الذي منشأه تحكيم الاهواء، وتسفيه الآراء، وإثارة الضغائن والاحقاد .

ألا انه اذا اصاب المسلم وهن او ضعف وفشل، أو ذل وهوان، ثم راح يشكو ويتألم، فليرجع الى كتاب ربه، فعنده فصل الخطاب، وما فرطنا في الكتاب من شيء، يقول تعالى :

( وَلاَ تَنَازعوُا فتفْشَلوا وتَذْهَبَ ريحكُمْ )

والريح هي القوة والصولة والعزة .

***

# واجب البيـــت

روى البخاري ومسلم ، قال . قال رسول الله ﷺ : ( ارجعُوا الى أهليكم ، فكونوا فيهم ، وعلموهم وبِرُّوهم ) .

أرأيتم هذه الطرقات تعِجُّ بالجماعات ، جيئة وذُهوبا ، قتلاً للوقت ، وتعطلاً من العمل ، وإضاعة للعمر ، وفراراً من التبعات ، واستخفافـاً بمعنى الكرامة الانسانية ؟

أرأيتم المقاهيَ والمنتدياتِ والمشاربَ في أيةساعة من ساعات الليلاو النهار ، كلها غاص بالجالسين أو اللاعبين أو الراصدين ، أزماناً بعد أزمان ، واياماً وراء أيام ، يأكلون فيها ، ويأنسون بها ويطمئنون اليها ؟

او ليس لهؤلاء بيوت ، يُلِمُّون بها إلماماً ، أو ليست لهم أسرٌ يتعهدونهـــا تعهداً ، أو ليس لهم أهـــل يَرْعونهم رعاية فيكونون فيهم ، يعلمونهم ويَبَرُّونهم ؟

لهؤلاء جميعاً ، يتوجه أمر النبي ﷺ ، يتوجه الى هؤلاء الفارين من بيوتهم ، النافرين من أسرتهم ، المضيّعين لأبنائهم وبناتهم ، المستعبَدين لعاداتهم وأهوائهم يأمرهم النبي ﷺ أن يرجعـــوا الى أهليهم ، وأن يعلموا نساءهم سيادة البيت ، وسياسة الاسرة ، وأداءَ حق الاطفال الصغار ، فإن للاطفال على الوالدين حقوقاً

هي ، عطفُ الحضانة وتنشئةُ الطفولة ، وان على السيدة أن تحبب البيت الى زوجها ، وان تجلب له فيه اسبابَ الراحة والطمأنينة والهناء ، فان احقر المنازل ، اذا تولت شأنه سيدةٌ عاقلة هاشة باشة ملأته سعادة وبهجة وأنساً .

ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجال الفارين من بيوتهم ، أن يُعلّموا الزوجة والولد والبنت وأن يبروهم ، فكل هؤلاء في حاجة الى رب الاسرة يأنسون اليه ، ويسعدون في جواره .

ولا يظنّنّ أحد ان الأجر والثواب كلّه وقفٌ على العبادة من صلاة ، وتردد على المساجد ، فرسولُ الله ﷺ يقول في الحديث الشريف : ( مشيُك الى المسجد ، وانصرافك الى أهلك ، في الأجر سواء ) .

جعل الرسول ﷺ الأجر مستوياً بين ا لمشيتين : مشية الرجل الى عبادة ربه ،ومشيته راجعاً الى بيته يدخل السرور على اسرته .

ليس شيء يبعثُ الجفوة ، وينغّص حياة الأسرة الا أن ينفق الرجلُ ساعاتِ ليله ونهاره ، يذرع الشوارع أو يعمر المقاهي ، فاذا لامه لائم قال : وماذا يبتغي البيت مني ؟ انَ في البيت طعاماً ، وان فيه شراباً ، وان فيه نفقةً !

ألا إن شأن البيت لأجلُّ من هذا، إنه روحٌ من الودّ ، وضياءٌ من الألفة، وقبس من المحبة ، وذلك لا يتوفر وصاحبُ البيت بعيد عن بيته .

قال لي بعضهم : أتريدني ألعبُ في البيت مع الأطفال ؟ نعم . نعم ، أريدك تلعبُ ساعة مع اطفالك ، أريدكَ سمحاً كريماً ، تبعث في البيت مرحاً وسعادة نفسية .

روى ابنُ عساكر عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : ( من كان له صبي ، فليتصابَ له ) . هذا الحديث يبسط معنى رحيماً ، عاطفاً ، حانياً على الصبيان والأطفال ، انه يأمر الرجالَ في بعض الحالات ان يتنزلوا الى ملاعبةِ الاطفال كما يفعل الأطفال بعضهم مع بعض .

ألا ان البيت السعيدَ لا يقـــوم الا على أساسٍ من الحب والرفـق والرعاية .

***

# مَنْ حَلَفَ لا يفعلُ الخيرَ والمعروفَ فهو آثم

**« حديث نبوي شريف »**

روى البخاريُّ عن عائشةَ رضيَ اللهعنها. قالت : « سَمعَ النبيُّ ﷺ صَوْتَ خُصومٍ بالباب عاليةً أصواتُهم ، وإذا أحدُهُمَا يَستوضعُ الآخر، ويسترفقه في شيء ، وهو يقول: والله لا أفعل . فخرج عليهما رسول الله ﷺ ، فقال : أين المتألى على الله لا يفعل المعروف ؟ فقال: انا يا رسول الله، فله أي ذلك احب».

هذا حديث يصف ويعالج شأناً من شؤون الناس في معاملاتهم ، وبخاصة ما يكون بين الدائن والمدين ، واكثر الناس يجانبهم التوفيق في اقتضاء الديون ، فلا هم يبقون على ودّ ولا على صفاء، ولا على تعاون. ولا هم يصلون الى حقوقهم كاملة كما يشاؤن ، بل ربما ضاعت كل الحقوق ، بتعجيز الدائن للمدين ، وبعنف الخصومة ، وفقدان الرفق ، وسوء التقدير للأمور ، والبعد عن هدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا الحديث يبين لنا انه — عليه السلام — كان داخل حجراته ، فسمع بالباب ضجة وضوضاء ، وأصوات خصماء ، يختصمون في أداء دين ، فالدائن يلح على مدينه ، ويغلظ له القول ، ولا يتزحزح عن مكانه في استيفاء الحق كاملاً غير منقوص ، فهو لا يعالج قدرة المدين على الأداء ، ولا يرفق به في السداد . والمدين لا يجحد الحق ، ولا يماطل ، وهو قادر ، وانما يبدي عجزه ، ويظهر رغبته في أداء الدين ، لو وجد تيسيراً من الدائن ، أو رفقاً في استيفاء

الدين . ان المدين – في الحديث – يخاطب مروءة الدائن ويلوذ ويلجأ الى رحمته ومعاونته ، انه ( يَسْتَوْضِعُ ) الدائن شيئاً من الدين – أي يطلب منه أن يَضَعَ عنه ، وان يَحُطَّ عن عاتقه ، بعضَ الدين الذي يُعجزه ، ويسد عليه منافذَ السَّداد ، حتى يستطيعَ أن ينهض بأداء ما يستطاع...

والمدين – كما ذكَرَ الحديث – يخاطب في الدائن ايضاً عاطفةَ البرّ الانسانيّ ، ويخاطبُ الرحمةَ الاسلاميةَ .

إنه ( يسترفقه ) أي يطلب منه الرفق في المطالبة ، أو الرفق في التجاوز عن شيء يسهّل الأداء ، ويحل المشاكل ، ويعين على الوفاء ...

لكن الدائن لا يرحم ، ولا يرق ، ولا يترفق ، بل يقسو ، ثم يقسو ، ويكلف المدين ما لا يسعه جهده ، انه يرفض ان يضع شيئاً عنه من الدين ، ويرفض ان يرفق بالمدين في المطالبة ، ثم يعمد الى اثم وعدوان فيؤكد سوء معاملته بيمين يقسمها مبالغة في الامتناع . ولقد عبر الحديث عن الحالف المتألى بأنه يتألى ، يبالغ في اليمين ، فالتألي هو الحلف الغليظ ، قال تعالى :

## ( لِلذين يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهم ) أي يحلفون

لقد سمع النبي ﷺ الدائن ، وهو يؤكد قسمه ، بأن لا يضع شيئاً عن مدينه ، ولا يرفق به في الطلب ، فأنكر ما سمع ، واستعظم فعلة الدائن ، واتخاذه يمين الله وسيلة لترك المعروف ، ونبذ البر ، ومجانبة الاحسان .

سمع النبي – عليه السلام – ذلك ، فلم يسعه الا أن يدع حجرته ، ويخرج الى المتخاصمين ويقول ( أين المتألي على الله لا يفعل المعروف ) كأنما بلغ العجب – منه ﷺ – اذ اراد رؤية هذا الانسان الذي جاوز حدود الانسانية ، وامعن في الانحراف حتى جعل يمين الله سداً منيعاً بينه وبينَ الخيرات .

اما الدائن ، فما كاد يرى رسول الله ﷺ ، ويسمع عبارته العاتبة الغاضبة

اللائمة ، حتى سقط في يده وندم ، ولم يسعه الا ان يتقدم تائباً منيباً ، فاعلاً للمعروف ، راضياً بالبر ، راغباً في الرفق .

فقال لرسول الله ﷺ في اعتراف النادم « انا يا رسول الله » انا الذي اقدم على هذا المنكر ، ثم اردف ذلك بأنه قد قبل أي الأمرين أحب مدينه ، فان شاء حط عنه ، وان شاء رفق به . هكذا تنتهي الخصومة في ظلال الهدي المحمدي ، وتعالج الأمور بالحسنى ، ويسارع المؤمنون الى طاعة رسول الله ، ومن يطع الرسول فقد اطاع الله .

كم من مزارع أثقله الدين ، وألحّ عليه صاحب الأرض ، ولم يفرق بين ما يستطاع ، وما لا يستطاع فضاع الدين كله ، وبارت الارض ، وخسر الدائن اضعاف ديونه . فإذا سئل ان يترفق بالمدين ، قال لقد حلفت لا انزل عن شيء من ديني ، واني لبار بقسمي ـ وفي الحق ـ انه لآثم في قسمه ، وانه لخاسر في عمله ، وانه لمخالف هدي الرسول ﷺ .

كم من رجل يحلف لا يزور صديقه ، او لا يكلم اخاه ، او لا يصل رحمه ، او لا يرفق بضعيف ، او لا يحنو على فقير ، فهذا الحالف آثم ، ويمينه إثم ، وانه ليخالف هدي الرسول ﷺ .

الا انه من الخير ان يتحلل كل حالف من مثل هذه اليمين ، حتى يعم المعروف ويتبع الناس سبيل نبيهم وسبيل المؤمنين .

# الحجر الصحي تشريع إسلامي

يروي عبد الرحمن بن عوف ، الصحابيُّ الجليل ، فيقول : ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اذا سمعتم بهذا الوباء في بلد فلا، تقدموا عليه، واذا وقع وأنتم به، فلا تخرجوا فراراً منه ) .

لرواية هذا الحديث قصة تاريخية ، فلقد فشا الطاعون ( في عَمَواس ) بالديار الفلسطينية ، ومنها انتقلت العدوى الى البلاد الشامية ، وكان فتكه ذريعاً .

وفي هذا الوقت ، كان عمر بن الخطاب خليفةً للمسلمين وكان قد غادر المدينة في طريقه الى الشام بعد ان فتحها قواده ، ليتعهد البلاد التي فتحت ، وليقيم عليها من يتولى مصالح الرعايا .

فلما وصل الى سَرْغ ، بالقرب من تبوك استقبله امراء الجنود ـ أبو عبيدة ابنُ الجراح ، ويزيدُ بن ابي سفيان ، وشُرَحبيل بنُ حَسَنة ـ وبادروا فأخبروا عمرَ أميرَ المؤمنين، أن البلاد التي هو قادم عليها ملوثة بالوباء، وانه يحصد الأرواح حصداً ، فانزعج عمر ، خوفاً على الجند وعلى المسلمين وعلى عباد الله ، وجمع اليه كبار المهاجرين والصحابة يستشيرهم في الأمر : أيقدمُ أم يرجع ؟ وانقسم القوم فريقين . فقال فريق، لا نُقدم على الوباء فنُلقيَ بأيدينا الى التهلكة، وقال فريق آخر: ياعمر ، خرجت لأمر اردت به الله وماعنده، فلا يصدنك عنه بلاء عرض. نظر عمر في الأمرين ، وروّى في حجج الفريقين ، ثم أمر ابن عباس أن ينادي

في الناس ، ليُعدوا رواحلَهم ، ولا يدخلوا البلاد الموبوءة ، وفي فجر اليوم التالي ، صلى عمر بالقوم ، وقال : اني راجع فارجعوا . لم يكن القائد الفاتح ( ابو عبيدة ) حاضراً تلك المشاورات ، ولا سامعاً لما انتهى اليه رأي عمر ، فلما علم به ، قال لعمر : أفراراً من قدر الله يا عمر؟ فنظر اليه عمر وقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ..نعم، فراراً من قدر الله ، الى قدر الله . ثم أطرق قليلاً وقال : يا أبا عبيدة . . أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً ، له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والاخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ؟

وبينما القوم يتناقشون ، أقبل عليهم عبد الرحمن بن عوف ، فسمع وعلم ما يجري بشأن الوباء،وهل يدخل الناس الأرض الموبوءة ،او ينصرفون عنها ؟ فقال عبدالرحمن : إنّ عندي في ذلك الأمر علماً عن رسول الله ﷺ . فقال عمر : الله أكبر ، تحدّث يا عبد الرحمن . قال ابن عوف : سمعت النبي ﷺ يقول : « اذا سمعتم بهذا الوباء في بلد فلا تقدموا عليه ، واذا وقع وأنتم به ، فلا تخرجوا فراراً منه » .

ففرح عمر رضي الله عنه اذْ وافق رأيهُ ما أمر به رسول الله ﷺ من قبل، ثم انصرف عمر عن دخول البلاد الموبوءة وانصرف معه المسلمون ، مجمعين الرأي على ذلك ، وعاد ابو عبيدة وأمراء الاجناد الى البلاد يعالجون امور الناس ، وبذلك تقرر الحجر الصحي ، بالسنة النبوية ، وباجماع أهل الحل والعقد من المسلمين ، وعلى رأسهم عمر .

لقد كان عمرُ بعد انصرافه الى المدينة يعالج أمر المسلمين في موطن الوباء ، وكانت الجيوش هناك تعسكر في أماكنَ هابطة ، ليس يتوفر لها نقاء الهواء ، فكتب عمر الى أبي عبيدة : إنك انزلتَ الناس ارضاً عميقة ، فاعلُ بهم أرضاً مرتفعة نزهة .

ولما ولِيَ عمرو بنُ العاص الأمر في المناطق الموبوءة ، خطب الناس فقال:

ان هذا المرض اذا وقع يشتعل اشتعـال النار ، فتحصنوا منه .

ليس الحجر الصحي – اذن – الا تشريعاً دينياً اسلامياً ، فليتقرب كل مسلم الى الله باتباع شرعه ، والعمل بهدي نبيه ، فاذا فرّ مسلم من مدينـة موبوءة الى مدينة صحيحة فهو آثم قلبه ، واذا دخـل مدينة موبوءة خفية ابتغاء متاع الدنيا ، فهو آثم قلبه ، واذا لم يصن الجماعة ويحبّ لهم ما يحبُّه لنفسه فهو آثم قلبه ، والله شهيد على ما تعملون .

## طهارة المجتمع ووحدة الكلمة

روى أبو داود والبيهقي في « دلائل النبوة » عن ثوبان مولى النبي ﷺ ، أنه قال : ( تُوشِكُ الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة الى قصعتها ) فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : «بل أنتم كثير .. ولكنكم غُثاءٌ كغثاءِ السيل ، ولينزعنّ اللهُ من صدور عدوكم المهابةَ منكم ، وليقذفنّ في قلوبكم الوَهَنَ ... » قال قائل : وما الوهنُ يا رسول الله ؟؟ قال : ( حب الدنيا ، وكراهة الموت ) .

***

في كل وقت ، وفي كل مكان ، حيث يتقابل الناس ، أو حيث يسمُر الاصدقاء ، لن ترى ولن تسمع الا شاكياً ساخطاً ناقماً ...

فرجل يصف ما تعانيه الأمم الإسلامية من ظلم ومن بغي ومن عدوان .... ورجل يشفق من المستقبل الذي قد يتمخض عن أحداث جسام ، وربما كان فيها خذلان أوطان واستلاب حقوق ، وإذلال نفوس ...

ورجل يُصوِّر في مرارة وحزن مظاهرَ الضعف ، وعلامات الانحلال ، وعبادة المال ، ثم يدهش من فتك المَرَضَيْن المتوطنين : البخل والجبن .

والكل يتساءل : ما أصل هذا البلاء ؟ وأين نعثر على الدواء ؟ . وفي الحق أن الأمر كما قال الشاعر الصادق :

دواؤك فيك وما تشعُرُ ودواؤك منك وما تبصِرُ

ان في قول الحكيم الرباني محمد ﷺ الذي صدرنا به هذا الحديث وصفاً للأمراض الاجتماعية التي أصابت الأمم الاسلامية ، وبياناً لأعراضها وآثارها ، وإشارة الى وسائل العلاج ، والى طرائق الشفاء .

أما أصل الداء الاجتماعي الذي يعانيه العالم الاسلامي ، فهو التقاطع والتخاذل والإختلاف ، وقد حذّر منه الرسول ﷺ . فقد روى البخارى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :( لا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا ).

هكذا يقرر الحكيم الرباني ، أن الاختلاف مبيد للأمم ، وأن انطواء كل فرد على نفسه خذلان للمجموع ، وأن وحدة الكلمة ، وإجماع الرأي على الأمر بالمعروف ، هو سبيل العمران وهو علامة على أن الحياة تتدفق في جسم المجتمع .

ولا ينشأ الخلاف ، ولا تعم الفرقة الاّ من شعور خاطىء آثم بأن الحياة الفردية ، والمتاع الذاتي ، هما كل شيء في تلك الحياة ، وان ليس على الانسان واجب لمجتمعه ، وإن كان له كل الحق على المجتمع ، ولقد يتضخم الشعور بالذاتية ، فلا يعود الفرد يشعر بمن حوله ولا يحس لهم بآمال ولا بآلام ، وعندئذ تنقطع الروابط ، وتنبتُّ الصِّلات ، فلست ترى وشيجةً ولا رحمةً بين الإنسان وبين أسرته ، ولا بين قريب وذوي رحمة ، ولا بين فرد وأمَّتِه ، كلٌّ عاكفٌ على شأنه ، معنيٌّ بذاته ، يصيح دائماً :

إنما دنياي نفسي فاذا سلمت نفسي ، فلا عاش أحد !

وكيف تسلم له نفسه ، وهذه صفاته ، وأفراد المجتمع من حوله يصيرون

– وهو منهم – كما يصور الحديث الشريف : كالورق الجاف ، المتساقط من فوق الأشجار ، ومن حول الأغصان ورق جاف ذابل ، لا قوام له ، ولا حياة فيه ، ولا فائدة منه ... ورق تذروه الرياح ، ثم هو غثاءُ هشيمٍ تافهٌ غثٌ يدفعه السيل ، وقد كان هذا الورق من قبل يانعاً فوق الشجرة يستمد منها غذاءه ، ويبعث إليها بغذائها. وهكذا يصف الحديث المحمدي البليغ كل أمة تكون كثيرة العدد ، متقطعة الأوصال ، مبددة القوى ، مشتتة الآراء والمذاهب ، قد أعرضت عن أسرار قوله تعالى :

(والَّذين يَصِلونَ ما أمر الله بهِ أنْ يوصَلَ ويخشونْ ربَّهمْ ويخافونَ سوءَ الحسابْ).

ولقد بيّن الحديث المحمدي أن من شأن المجتمع الذي تسري فيه الفرقة – من شأنه أن يغري به الأعداء والخصوم ، وأن يهيىء للغاصبين أن ينقضوا عليه ... فهم يتداعون – يدعو بعضهم بعضاً – الى الفتك والى الالتهام . . .

ويشير الحديث المحمدي الى ان الاختلاف والشقاق مبعثها الأَثرةُ والحرص على النفع الذاتي ، وإذا ما استشرى داء الأنانية في أنفس الأفراد، قذف الله فيهم الوهنَ . والوهن هو الضعف في الرأي وفي العمل وفي البدن ، وهو أيضاً كما عرّفه رسول الله ﷺ حب الدنيا ، وكراهة الموت ، ويتولد عن ذلك لا محالة، الحرص والبخل والخور والجبن ...

وكل مؤرخ لدول الإسلام يعرف مدى الخلاف الذي وقع بين عليٍّ ومعاوية. خلافٌ استحكم وتغلغل وتشعّب ، ولكل منهما فيه وجهة هو مولّيها ...

ولكننا نرى ان الخلاف الذي قطع الأواصر ، وشتت القوى ، وأسال الدماء ، وجيّش الجيوش ، نرى هذا الخلاف قد اختفى وتوارى عندما تعرضت سلامة الامة الإسلامية لخطر الدخيل المتوثب : قيصر الروم ..

لقد انتهز قيصر الروم الخلاف المشبوب بين معاوية وعلي، ورآها فرصة مواتية لأطماعه في القضاء على دولة الإسلام، التي كان يمثلها جاره يومذاك (معاوية)، لقد استضعف قيصر معاوية وظنه موزع القوى، لا يُعنى بشيء الا بإفناء جيش علي، والقضاء عليه .. فما هو إلا ان بعث قيصر يهدد معاوية ويطلب اليه ان يؤدي اليه الجزية .. يا لله .. معاوية ممثل الدولة الاسلاميه الغازية الفاتحة التي ضربت الجزية على الفرس وعلى الروم، يطلب اليه أن يؤدي هو الجزية؟ وهل صار من الهوان بحيث يطمع فيه الطامعون من بني الروم ؟ لا .لا، لقد بادر معاوية بلطمة قذف بها وجه قيصر، وحسم الأمر سريعاً ليعرف قيصر الروم ان نفسه قد كذبته، وان معاوية قد يرى بأن يدفن ما بينه وبين علي وان ينسى كل شيء في سبيل سلامة الأمة وصيانة الدولة ...

لقد بادر معاوية وهو في موقف ضنك من الحرب، وأرسل لقيصر الروم يقول : ان لم تكف عما سولت لك نفسك، فمن الغد قد أتفق أنا وابن عمي علي ونجتمع سوياً على حربك ...

ولقد كان لهذا الرد الحازم أثره الفعّال في نفس قيصر الروم، فتردد في طلب الجزية من معاوية، ثم تخاذل وانصرف عن أن ينال من دولة الإسلام منالاً ...

رحم الله معاوية وعلياً، معاوية الذي رأى أن علياً منه وإليه، وان الخلاف بينهما لا يتجاوز أيهما أحق أن يلي أمر المسلمين، وان يقيم دينَ الله، وأن يُعلي كلمة الحق ...

أما قيصر فهو قيصر، لا يريد غير تحطيم الدين، وإلا زوالَ كلمة المسلمين .

وانما تحقق للمسلمين نصر الله، وإنما سعد المجتمع بأبنائه، يوم كان الفرد لأمته لا لنفسه، وكان نظره لمجتمعه لا لذاته — يوم كان يعمل للفكرة والعقيدة، لا للجاه والسلطان . هنالك انبعثتْ الشجاعة الاسلامية، وسهُلتْ التفدية بالنفس في سبيل الله، وفي سبيل الحق ...

فليرجع كلٌّ الى نفسه يسائلها : هـــل هو يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؟ وهل هو يألم لأخيه كما يألم لنفسه ، وهل هو يشعر بشعور جماعته ، وهـل يحس أنه خلية من خلايا المجتمع يحييها ما يحييه ، ويمرضها ما يمرضه .

إن كان الأمر كذلك ، فهو إيذانٌ بأن البرء يتمشى في جسم المجتمع ، وإلا فليعالج كلٌّ شاكٍ وكل ساخطٍ نفسه أولاً من قبل أن يرفع الصوت عالياً بالحسرة وبالسخط .

( وإن الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفسِهم )

# عدل الانسان مع نفسه

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه، أن رسول الله ﷺ قال : ( كلوا ، واشربوا ، وتصدقوا ، والبسوا ، في غـــير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب ان يرى آثار نعمته على عبده ) .

هذا هو الأدب المحمدي ، الجامع لكل الفضائل ، والسياسة الحكيمة لإنفاق المال فيما يصلح عليه امر المجتمعات والأفراد، فلو ان الانسان عدل مع نفسه، فلم يذلها بالبخل ، ولم يهلكها بالإسراف ، ثم عدل مع غيره، فأنفق الفضل من ماله، وأفاء على الناس مما أفاء الله عليه ، حتى تنكسر سورة الأحقاد ، ويذهب غيظ القلوب ، وتنطفىء حرارة الحرمان اذن لعاش الناس في ظـــلال الأخوة لا تزعجهم المزعجات ، ولا تهزهم الهزات ...

انه ليس أفسد للنفوس ، ولا أخبث للسرائر من البخل الذي لايعالج قبل ان يستفحل ، وقبل ان ينقلب من بخل الانسان على غيره ، الى بخل الانسان على نفسه . وما أشد الويلات التي يجلبهـــا البخل على النفس ... حتى ليصبح المال موضع التقديس ، ويصبح البخيل عبداً للمال ، بعد ان كان المال وسيلة لسعادة الانسان .

أنت للمال اذا أمسكتـه  فاذا أنفقته فالمـال لك

يجوع البخيل فلا يأكل ، ويظمأ فـــلا يشرب ، ويعرى فلا يلبس ، وانها

لجنايات على النفس توشك ان تهلكها إهلاكاً .

ويأكل المسرف أكلاً لمّاً ، ويجمع ألوان الطعام على مائدته جمعاً ، ويشغل نفسه طوال يومه وَطرفاً من ليله ، بما يأكله حاراً وبارداً ، وجافاً ويابساً ، وحلواً ومراً ، فلا ينقضي غير قليل ، حتى تتجمع الأمراض ، وتستحكم العلل ، فهناك تمدُّدُ المعدة ، وهناك سوءُ الهضم ، وهناك اضطراب الأمعاء ، وهناك التخمة ، وهناك تصلب الشرايين ، وهناك اقتراب من الفناء ( وربّ أكلة منعت أكلات ) .

وفي الآثار ( إنّ من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت ) .

وإن من الناس من يخادع نفسه ، ويخادع الناس ، فهو يكدس المال أكداساً ، ويفتح لجمعه نوافذ وأبواباً ، ثم يبيت على الطوى حرماناً للنفس وتقشفاً وزهداً في متاع الدنيا . يتبلغ بالكِسرةِ ، ويكتفي باللقمة ، ولا يستحي ان يسمي هذا ورعاً وزهداً ، والله يعلم ان هذا لا يسمى الا غلواً وبخلاً وشحاً ، وأنه هو وذلك الذي يُبْشِمُ نفسه بالأطعمة ترفاً وطيشاً ، سواء بسواء ، كلاهما مسرف ، وكلاهما مخادع ، وكلاهما هالكٌ لا محالة ، أوَ ليس الله العليمُ بخلقِه ، الرحيمُ بعبادِه ، يقول : ( وَكلوا واشْرَبوا ولا تُسْرِفوا إنّه لا يُحِبُّ المسرفين ) . ويقول : ( يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّموا طيباتِ ما أحلّ اللهُ لكم ) . والإسراف والتبذير كالبخل والتقتير ، كلاهما انحراف عن سواء السبيل .

أرشدنا الحديث الشريف ان نأكل وان نشرب « وان نلبس جميل الثياب » لأن هذه نعمٌ أنعم الله بها علينا لمنفعتنا ، ولكن بشريطة ألاّ نسرف ، والإسراف تجاوز الحد ، فاذا لم يأكل الانسان الا اذا جاع فليس مسرفاً ، واذا شعر بالشبع وكف عن الطعام فليس مسرفاً ، واذا لم يأكل الا أخبث الزاد ، وهو قادر على أطيبه فهو مسرف ، واذا أمعن في ازدراد الطعام بعد أن شبع فهو مسرف . والسيدة التي تكلّفُ زوجها ونفسها أعباء الملابس ، وتحب أن تجعل لكل زيارة

غُلالةً جديدة ، وحُلّةً ممتازة ، ولا ترضى ان تبقى حلة العام للعام المقبل ، ولا ان ترتدي اليوم ملابس الأمس ، كل هذا إسراف وتبذير وانه لمَخْيَلةٌ لعُجْبٍ وكبرياء ، وإنه ليؤذن بزوال النعم ، وحلول النقم ...

والرجل الذي أسبغ الله عليه نعمته ، فأخفاها ، وأعطاه أسباب السعادة فدفنها ووأدها ، وبدا للناس في الثوب الخلق ، والشكل الرزي — مثل هذا الانسان مسرف مرتاب في الثقة بالله .

(وَاللهُ لا يَهْدِيْ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مرتاب).

روى أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيتُ رسول الله ﷺ في ثوب دون، فقال: ألك مال ؟؟ قال: نعم . قال: من أي المال ؟ قال: قد أتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

فالعدلَ العدلَ مع النفس ، والعدلَ مع المجتمع . ومـــا أهلك الأمم الا الافراطُ أو التفريط ، والا الجبروتُ والكبرياء .

ورحم الله من سمـــع كلام النبوة ووعاه .

# ما هي أفضل الأعمال ؟

روى البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله : أي الاعمال أفضل ؟ قال : الايمان بالله ، والجهاد في سبيل الله .

صحابة رسول الله - ﷺ - قد هذبتهم مدرسةُ النبوة ، وروّت نفوسهم ينابيعُ الرسالة ، فهم في شغل دائم من أمر دينهم وهَدْي نبيهم ، يستزيدون من الخير . ويحرصون على البر ، ويتسابقون فيما يَصلُحُ عليه أمرهم في الدنيا والآخرة ، لهذا لا ينفكون يسائلون النبيّ - ﷺ - أي الأعمال أفضل ، وأي الأعمال أنفع ، وأيها أعظم أجراً ، وأيها أوفر ثواباً ، وأيها يقرب من الله زلفى.

ورسول الله ﷺ ، لاينفكُّ يجيبهم على ما يسألون، يجيبهم إجابةً وجيزةً ، ولكنها جامعةٌ شاملةٌ ، تنطوي فيها كل مسالك الخير ، وتنفتح عندها جميع أبواب البر . وهي الأساس ، الذي لولاه ما قام بناء .

يقول - عليه السلام - في تعريف أصحابه ، ما هي أفضل الأعمال ؟ إنها الايمان بالله ، والجهاد في سبيل الله . كلمة وجيزة، ولكن ينبعث من بين حروفها، كلّ ما يملأ حياة الفرد ، وحياة الامم سعادةً وعزةوقوة وأمناً وسلاماً وطمأنينة وأملاً ورجاءً وتفاؤلاً .

الايمان بالله يجعل من قلب الآدمي حصناً تتحطم أمامه أحداث الزمن ، وترتدّ عنده موجات الحياة العاتية ، وتنبعث منه أشعةٌ وضاءة تبدد كل حالكة

من الايام . ليس الايمان كلمةً يلوكها اللسان ، ولا لفظاً يتزين به الانسان ، وانما هو روح يسري في الجوارح والاعضاء ، ثم يتمثل عملاً كريماً نافعاً متصلاً ، ويجري على اللسان بياناً حقاً صادقاً لا لغوَ فيه ولا هجَر ولا عبث ولا مجانة ، وتضمِرهُ السرائر ، رغبةً في كل خير ، وحُباً لكل انسان ، وعطفاً ورحمة بكل ذي كبد رطبة .

كان بعض الاعراب — في فجر الدعوة الاسلامية — ينطق بالشهادتين، ويفعل ما يفعله المسلمون ، ثم يقول اني مؤمن ، من قبل أن تُعرقَ فيه معاني الايمان ، ومن قبل ان يضطلع باعباء الايمان ، ومن قبل ان يُختَبر بالمحن والشدائد ، التي تمحّص الذين آمنوا ، وتمحق الكافرين . وكان هؤلاء الاعراب يحسبون انفسهم مؤمنين ، بمجرد اسلامهم ، ومن قبل أن تظهر ثمرات الايمان في اعمالهم ، وفي معاملاتهم، ولدى شدائد الحياة ، وعند اختيارهم بما يحكمه ويقدره الله:

( أَحسِبَ الناس أنْ يُترَكوا أن يقولوا آمنّا ، وَهُمْ لا يُفتنَون - أي يَختبرون ويمتحنون - ولَقد فَتنّا الذينَ مِنْ قَبْلِهم ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صدَقوا وَلْيَعْلَمَنّ الكاذبين ) .

ولقد رد الله تعالى على كل من يدّعي الايمان ، من قبل أن تبدو في اعماله ثمرات الايمان ، قال تقدست آياته : ( قالتِ الأَعرابُ آمنّا . قُلْ لَمْ تؤمِنوا ، ولٰكنْ قُولوا أَسلَمنْا ، وَلَمّا يَدْخُلِ الايمانُ في قلوبِكم ) .
إذنْ ، الإيمان قوة فياضة بالاعمال الصالحة، صبّارةٌ على محن الحياة، وان الامانة التي يلقيها الايمان على كواهل المؤمنين ، امانة عظيمة القدر ، جليلة الخطر :
( إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ عَلى السّمٰواتِ والأرْضِ والجبالِ فأبيْنَ أنْ

يحْمِلْنَها وأشفقن منها وحَمَلَها الانسانُ ، إنّه كان ظلوماً جهولاً ).

وأما الجهادُ في سبيل الله ، فهو أثرٌ من آثار الايمان بالله ، لأن الجهاد إيمان بإحدى الحسنيين : إما نصر فحياة ماجدة عزيزة يعتز بها الانسان ، وإما موتٌ يبعث بالشهيد الى حياةٍ أعز وأكرم ، والى رضوان من الله اكبر .

ولقد كان المؤمنون من اصحاب رسول الله ﷺ ، يتدافعون الى ساحات الجهاد ، ويبلغ الحزن بهم أقساه وأعنفه ، اذا لم يجدوا عُدّةَ الجهاد ، ولا راحلة الجهاد .

كان – عليه السلام – يُجَهِّز جيشاً ، ويُعدُّ عُدّته ، فجاءه سبعة من فقهاء الصحابة الفقراء ، اعياهم ان يجدوا رواحل تحملهم الى ساحات القتال ، وطلبوا اليه – عليه السلام – ان يحملهم مع المجاهدين ، وكانت الحملة في ساعة العسرة ، وفي شدةٍ من الوقت ، فقال لهم ﷺ : ( لا اجد ما احملكم عليه ) وهو رد صادق ليس فيه إعناف ولا إغضاب ، وكان حسبهم وفاءً لعقيدتهم ما فعلوه ، وما لا قِبَلَ لهم بدفعه ، لكنهم لم يَرضَوا أن يكونوا مع الخوالف ، فحزنت نفوسهم ، وفاضت بالعبرة عيونهم ، فأنزل الله فيهم آيات تطيِّب خواطرهم ، وتؤنس نفوسهم ، انزل الله : ( لَيْسَ على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الّذين لا يَجِدونَ ما يُنفقون حرجٌ إذا نصحوا الله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفورٌ رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوْك لتحمِلهم ، قلتَ لا أجدُ ما أحملكم عليه تولّوا وأعينُهم تفيض من الدمع حزناً ألاّ يجدوا ما ينفقون ) .

لكن حزن هؤلاء الابطال لم يدم طويلاً، فقد جهَّز بعضَهم عثمان بن عفان، وجهَّز الباقين العباسُ بن عبد المطلب، فرقأت الدموع المنهمرة، وهدأت النفوس المتلهفة على الجهاد في سبيل الله .

هل يذكر كل مؤمن في عمله وفي معاملتــه ، معاني الايمان بالله ؟ ان الاعمال وحدها هي دليل الايمان .

# ليلة النصف من شعبان

## موسم للدعاء وعيد للاجابة

يقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على إحياء هذه الليلة المباركة، ليلة النصف من شعبان ، وهم يستلهمون في ساعاتها ولحظاتها اكرم الذكريات ، ويستمنحون الله فيها رحمته وتوفيقه وهُداه — وذلك بأنها ليلة الاستجابة . استجاب الله فيها لرسوله محمد ﷺ، ما كان يتطلع اليه ، وأناله ما كان يرجوه، وحقق له فيها امنية عزيزة عليه، غالية عنده، تلك الأمنية التي وصفتها ووصفت تحقيقها الآية الكريمة :( قدْ نرى تَقلُّبَ وَجْهِكَ في السّماء فَلَنوَلّينَّكَ قبلةً ترضاها ،فولِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحرامِ ،وحيثما كنتم فولوّا وجوهَكم شَطْرَه ) نعم ،لقد تحولت القبلة الى الكعبة في البيت الحرام،وقد كانت من قبل القبلة الى بيت المقدس ، وكان هــذا التحول يوم الثلاثاء للنصف من شعبان في السنة الثانية من الهجرة .

لقد كانت قبلة الصلاة أولاً بيت المقدس ، وكان عليــه الصلاة والسلام من شدة حبه للكعبة، وشغفه بها، يجعلها بينه وبين بيت المقدس كلما قام الى الصلاة طوال ايامه بمكة من قبل الهجرة، فلما هاجر الى المدينة ، بقيت قبلته في الصلاة بيت المقدس ، وان كان قد بقي فؤاده يهفو الى وطنــه ، ويحن الى استقبال الكعبة المشرفة ، ويستشرف الى أمر من الله ، يؤذن بتحويل القبلة اليها ...

نعم ان بقاء القبلة الى صخرة بيت المقدس بعيد الهجرة ، قد ألّف قلوباً ليهود يثرب ، ويسر سبيل الهداية ، وأشار الى وحدة الدين ، ووحدة العبادة ، ووحدة الرسالة ، الإلــٰهية ولكن هل أجـدَتْ هذه المعاني السامية في قلوب هي كالحجارة أو أشد قسوة ، لا ... انها لم تُجْدِ ، بل لقد اشتد كيد الجاحدين من اليهود وحسدوا رسول الله على ما آتاه الله من فضله ، حتى لقد تآمروا على قتله — ﷺ — ودسّوا له السم في الطعام ، وتحالفوا مع المنافقين لكي يعصفوا بالدعوة المحمدية .

وطالت الأيام ، وامتد حبل الغدر من اليهود ومن المنافقين ، وتاقت نفسه ﷺ الى ان ينصرف عن قبلة اليهود ، وألا يشركهم في صور العبادة والا يشاكلهم في جهاتها — بعد أن انحرفت قلوبهم عن الحق ، وأمعنوا في العناد ، وأيأسوا منهم محمداً ﷺ : ( ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتابَ بكل آيةٍ ما تبعوا قبلتَك ). فكان عليه الصلاة والسلام يترقب الوقت الذي ينصرف فيه عن مشاكلتهم ، فتصير قبلة المسلمين — الكعبة — البيت الحرام . ذلك لأنها عزيزة عليه ﷺ ولأنها رمز التوحيد الذي اقامه ابراهيم خليل الله ، ولأنها محل فخر العرب وشرفهم ، وموضع تقديسهم .

كان — عليه الصلاة والسلام — في ذلك الوقت يتطلع الى جوانب الأفق ، ويصعّد طرفه الى السماء ، ويتشوف للقاء ( جبريل ) عسى الله ان يحقق له هذا الأمل المنشود ، أمل تحويل القبلة الى الكعبة ، التي لم تغب عن عينه ، ولم يتغير حبها في فؤاده ، وكيف؟ وهو عليه الصلاة والسلام يتمثل دائماً يوم غادر الكعبة ، وغادر وطنه فراراً بعقيدته ، وكان يود ان لو بقي بجوار البيت العتيق ليخلصه من دنس الإشراك ، وليعيد اليه جلال التوحيد ، وليطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود ، كما امر الله خليله ابراهيم من قبل .

انه ﷺ كان لا يزال يذكر ، يوم تهيأ للهجرة ، وقد ملأ قلبه شعور الأسف

على مغادرة وطنه ، وعلى تركه مدارج نشأته ، وابتعاده عن هذا الاشعاع الروحي ، الذي ينبعث من جوانب الكعبة ...

كان ـ عليه السلام ـ يذكر الساعة الرهيبة التي ودع فيها الكعبة قبل ازماعه الرحيل ، وقد اهتزت مشاعره بأنبل معاني الوفاء والحب . فشخص ببصره الى البيت العتيق ، وجعل يناجيه ، ويقول : ( والله انك لأحب أرض الله اليّ ، وانك لأحب ارض الله الى الله ، ولولا أنّ اهلك أخرجوني ما خرجت ) فياما أبرها وأحنها عاطفة وطنية ، وما أكرمه وفاءً محمدياً !!

من أجل هذا كله ، كانت قرة عينه ـ عليه السلام ـ وراحة نفسه ، ان يشرع الله له القبلة الى الكعبة . وبينما هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصلي الظهر في مسجد بني سلمة في ضواحي المدينة . وبعد ركعتين من الصلاة ، نزلت عليه آية تحويل الكعبة فطابت نفسه الشريفة ، وتحول وهو في الصلاة شطر الكعبة . وسُمّي المسجدُ من ذلك الوقت بمسجد القبلتين ، وكان ذلك في النصف من شعبان . فيا له من موسم تحفه البركات ، وتحوطه أعز الذكريات ، وتتجلىّ في آفاقه علامات القبول ، وتلوح في صبحه ومسائه إشراقات الفيوضات ...

ولقد حدث في أعقاب هذا التشريع وجعل الكعبة قبلة العبادة ، ان ارجف المرجفون ، واتخذوا من هذا الحادث سبيلاً لزلزلة العقيدة الاسلامية ، وبث الريب والشكوك ، فالمشركون جعلوا يقولون : ـ رجع محمد الى قبلتنا ، وسيرجع عن دينه الى ديننا؟ !واليهود طفقوا يبثون سمومهم ، ويقولون : إن محمداً قد انصرف عن قبلة الأنبياء وانها لقبلتنا !! والمنافقون أخذوا يشككون المسلمين في عقائدهم ، ويقولون انها الحيرة والتردد ، وان محمداً ، لا يدوم على حال ! فلهؤلاء جميعاً نزلت الآيات تُسفه مقالتهم ، وتزري بعقولهم :

( سيقولُ السفهاءُ مِنَ الناسِ ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ، قلْ لِلّه المشرقُ والمغربُ ، يَهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيمْ .

قطعت الآية على هؤلاء وهؤلاء أسباب التضليل والإرجاف ، ووصمتهم في مقالتهم بأنهم سفهاء خفاف الاحلام ، لايعرفون من الدين الا ظواهره واشكاله ، أما أسراره وحقائقه ، فقد حجبتها عنهم احقادهم ، وصرفتهم عن تفهمها سوءاتهم .

هم يحسبون ان للجهات في ذاتها شرقاً أو غرباً فضلاً وشرفاً ، وان للقبلة بذاتها وتكريمها تكريماً وتمجيداً ، والحق ان الله تعالى الذي له المشرق والمغرب ، قد يجعل للناس قبلة يتجهون اليها زمناً من الأزمان لأن الخير لهم في ذلك ، ثم يجعل لهم قبلة غيرها يتجهون اليها بعد ، لأن الخير لهم ايضاً في ذلك ، وفي كلا الأمرين ليس المقصود الا عبادة الله وحده ، واسلام النفس لله وحده. فما دام التوجه اطاعةً لله ، وتوحيداً لله ، فسواء أكان الاتجاه شرقاً أو غرباً ، ويمنة أو يسرة :

( ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تولّوا فَثَمَّ وجهُ الله ).

اللهم ياذا الحكمة البالغة ، والقدرة الكاملة ، والرحمة السابغة. كما جعلت هذه الذكرى استجابة لدعاء نبيك ، وارضاء لضراعة رسولك ، فاستجب لأمته تتوحد لك عبوديتهم وان تعتبر بالحق نفوسهم ، وأن تجتمع على الخير كلمتهم ، وأن يصلح آخر أمرهم ، كما صَلُح أولهُ ، بالتفدية والإيثار . ولقد قلت يا الله ، ادعوني استجب ، فها نحن ندعوك ، كما دعاك محمد رسولك ، سبحانك لا اله الا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

## الايمان الحق ، ثمرته الجهاد

يقول الحق جلت آياته : ( والَّذينَ آمنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ ، والذين آوَوا ونصروا ، أولئك هُم المؤمنونَ حقاً ، لهم مغفرة ورزقٌ كريم ) .

إن للايمان علامات ، وإن للايمان لتبعات ، وإن للمؤمنين ـ حقاً ـ لابتلاءات واختبارات . فليس يكفي ، وليس ينجي ان يتحرك اللسان ، بكلمة الإيمان ، ثم لا يظهر لها أي أثر في الوجدان ، وليس بنافع ولا شافع ايمان يقف معه المؤمن مكتوف اليدين ، مغلول الراحتين ، يرى اخوانه في الانسانية ، بل إخوانه في العقيدة والوطنية والعربية ، ينفرون خفافاً وثقالاً ، زرافات ووحداناً ، يكافحون البغي والعدوان ، ويذودون عن شرف الاوطان . وفي وسط هـذا الصراع الماجد لا نزال نرى ذلك الذي يخادع نفسه بإيمانه ، وهو غارق في لهوه ، متقلب في متاعه ، غافل عن جند الله ، له مـال ، ولكنه غير مبذول ، وفيه عون ، ولكنه غير مأمول .

ان الله لن يترك مؤمناً ، الى كلمة الايمان ، التي يلوكها اللسان :

( أَحسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكوا أَن يقولوا آمنّا ، وهم لا يُفتنون ) :

ـ ( وهم لا يختبرون بالشدائد والحروب ) ـ ولقد فَتنّا الذينَ مِنْ قَبلهم ، فَلْيعلَمنَّ اللهُ الذينَ صَدَقوا وليعلَمنَّ الكاذبين ) .

ان الايمان الحق ، لا يلابس قلب انسان ، إلا ويكون اول اعماله ، أن يقدم روحه وماله في سبيل الايمان . يقدم روحه ، ولا يرهب الموت ، لأن الله تعالى يقول : ( فلا تخافوهم وخافونِ إنْ كنتم موًمنين ) . ويقدم ماله بسخاء وطيب نفس ، لأن بذل المال في هذه المواطن ، يحفظ المال بعد ذلك من أن يُستلب ومن أن يغتال ، بل يحفظ النفوس من ان تهلك ، يقول تعالى : ( وأنفِقوا في سبيلِ الله ، ولا تُلقوا بأيديكم الى التهلُكة ) ، فترك البذل ، وترك التفدية ، مهلكة للنفوس ، متلفة للأموال .

لقد تبين الرشد من الغي ، وتجلى في بيان القرآن ، ان الايمان الحق ، هو الذي يخالط شغاف القلب ، ويسري في الجوارح ، فيدفع الى الهجرة في سبيل الله ، والى المسارعة نحو ميادين الجهاد ،والى نصرة المظلوم ،والى إيواء اللاّجىء، والى بسط الأيدي بالبذل والانفاق ، وهنالك تعتز الأمم بحياة كريمة ، بعيشة عزيزة ، برزق كريم ، وبثراء عظيم .

لقد وصف الله في آياته ضروباً من النفاق. والنفاق شر ضروب الكفر والجحود . فمن ضروب النفاق ، التثاقل عن استجابة داعي الحق ، والإخلاد الى الراحة والضن بالمال على المجاهدين ، وهنالك الذل المقيم ، والعيش الذميم ، والثراء الاثيم ، يقول وعيد الله تعالى: ( فَرِح المخلّفون بمقْعدهِم خِلافَ رسولِ اللهِ وكَرِهوا أن يُجاهِدوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله،وقالوا لا تنفِروا في الحرِّ، قُلْ نارُ جهنَم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون ) .

ولقد أبانت الآيات البينات ، انه لا عذر لقادر في يوم البأس ولا لغني في في يوم البذل ، وان الله يحصي أعمال العاملين .. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .. يقول وعد الله تعالى :(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله - عن الحق الذي خرج يدعو

اليه الرسول ـ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نَصَبٌ ولا مخمصة في سبيل الله ـــ يعني مشقة وجوع ـــ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع اجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون)

فيا ايها المؤمنون حقاً: لقد تنافس في الجهاد المجاهدون، واستبق الى الخيرات المستبقون ، وان هـــذه لهي ايام التمحيص والاختبار ، أيام الصحـف المطهرة الخالدة ، تحصي فيها ملائكة ُ اللهُ اعمال الابرار . وانكم لن تنالوا البر ، حتى تنفقوا مما تحبون .

لقد روى البخاري ومسلم ، أن أبا طلحة سمع ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ) فجعل أحبّ أمواله اليه ، صدقـة في سبيل الله ، فقال له النبي ﷺ : ( بخ بخ ذلك مال رابح ) .

وسمعها زيد بن حارثة ، فجاء بفرس لم يكن له مال احبّ اليه منها، فقال: هي يارسول الله صدقة، فقبلها ﷺ .

الا لمثل هذا فليعمل العاملون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

# حقوق الجوار

روى البخاري عن أبي شريح رضي الله عنه . قال . قال رسول الله ﷺ : ( والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لايؤمن ). قال أصحابُ رسول الله : لقد خاب وخسر ، من هو يا رسول الله ؟ ؟ ( قال : الذي لا يأمَنُ جارهُ بوائِقَه ) .

قَسمٌ بالله عظيم ، يبتدىء به النبي الكريم ثم يكرره توكيداً لدلالته . ولو ان رسول الله ﷺ اكتفى بالخبر من غير قَسمٍ لكان قولُه الصدقَ ماثلاً ، والحقّ قاطعاً فكيف بالقسم المؤكِد ، وبالمقسِم الصادق الأمين ؟ اذن ، المقَسمُ عليه أمرٌ جليل الشأن ، وان قضية الجوار لعظيمة الخطر .

كرر — عليه السلام — القسم ، ولم يذكر المسند اليه ، ولم يبين من هو الذي لا يتحقق ايمانهُ ولا يكمل يقينه ، فهلعت قلوب أصحابه ، واشفقوا مِن هذا الخسرانِ المبين ، واستشرفت نفوسهم لتعيين هذا الرجل الذي سلب نعمة الايمان وهم من فرط حرصهم على تعرفه ، وتكرار رسول الله للقسم سارعوا الى إقرار الخبر ، فبادروا يقولون لرسول الله : صدقت . صدقت . لقد خاب وخسر ، ولكن من هو يا رسول الله ؟ من هو الذي تقسم بأنه لايؤمن ؟فقال : (الذي لا يأمن جارهُ بوائقَه) .

والبوائق – جمع بائقة – وهي الفعلة من أفعال الشر، فالبوائق هي الشرور، والايذاء. وهي عامّة شاملة لكل ما يؤذي الجار ايذاء نفسياً كالإعراض عنه وتجاهل أمره، والتجهم عند لقائه واعلان السرور في ساعة حزنه، والحزن عند فرحه. وكذلك إيذاءُ الجار إيذاء مادياً كمشاكسته وملاحاته وطرح الأذى عليه ومشاتمته ونهر أطفاله، والركض فوق سقفه، والهدم في جدارهِ واقلاق راحته، وإطلاق المذياع يوقظ النائمين، ويزعجُ المرضى. كل هـذا وأمثاله – بوائق وشرور، اذا لم يكفّ عنها الجـار، كان ذلك مؤذناً بسلب الايمان والعياذ بالله.

ان رسول الله ﷺ ما أقسم على حرمة الجوار، ولا على حق الجار، ومـا أنذر بهذا الانذار الشديد الا اتباعاً لأمر الله وايماناً بكتاب الله.

***

والجار من تجاوره وتلقـاه في غدوك ورواحك وفي صباحك ومسائك، وليس يُحدّدُ الجوارُ بالديار، ولا بالأذرع وانما يحدّدُه العرف. فـرب من يساكنك في ضاحية تلقاه كل يوم فهو جار، وان لم تتلاصق الديار.

وإكرام الجار من أخلاق العرب التي امتدحها الاسلام وعظّم أمرها، ولقد كان واحدهم يأتيه العائذ مستجيراً، ويقول: (أنا جارك – أنا في جوارك)، فيحق له ما يحق للدفاع عن النفس والعِرض، ويقول شاعرهم:

ونكرم جارَنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

ويروي البخاريُّ عن عبدالله بنِ عمر، أنه ذُبحَ لهشاةٌ فجعل يقول لغلامه:

أهديتَ لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورِّثه ) .

فهذا عبد الله بنُ عمر يقرر أن البر بالجار يشمل كلَّ جار مسلماً ، أم غير مسلم ، وناهيك بفقه ابن عمر ، وعلمه ودينه وتقواه .

إن كل مؤمن يحـرص على إيمانه ، ويرجو من الله قبول أعماله ، حريٌّ به ان يقف طويلاً أمام هـــذا الحديث الصحيح الصريح المؤكَّد ، ليرى ما عساه يكون نقصاً في معاملة الجار ، وفي التهاون بحقوق الجوار .

نعوذ بالله من سلب الايمان .

* * *

ولقد امر الله نبيه ﷺ ان يجير من يستجير به ، وان يؤمِّن من استأمنه — حتى ولو كان مشركاً — متى طلب الجوار ، إما لكي يسمع كلام الـله ، وإما ليعلم ما يدعو اليه هذا الدين ، واما لمجرد لقاء رسول الله ﷺ ، وان لم يذكر سبباً للاستجارة ، وقد أوجب الله ان يبقى الأمان ، لمن طلب الجوار ، حتى يبلـغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه ، ويكونُ حرّاً في عقيدته لا يُقهر ، ولا يُغتال — يقول تعالى : ( وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك ، فأجرْهُ حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمَنَهُ . )

* * *

يقول الله تعالى ، وهو أصدق القائلين :

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذي

القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ) .

آيةٌ جامعة لمعالي الامور ، قرنَتْ في نظام واحد طائفة من الفضائل الاسلامية ، في عشر وصايا ، ثم ختمت ، بوعيد شديد ، لكل من اهمل تلك لوصايا ، ونبذ هذه الاوامر الإلهية ، اختيالاً وفخاراً ، واعتداداً بالنفس وحرصاً على الذاتية . لأن المختال يرى نفسه اعلى من نفوس الناس ، والمختال هو الذي تمكنت من نفسه ملكة الكبرياء ، حتى ظهر اثرها في عمله وفي شمائله ، والفخور هو المتبجح بالحديث عن نفسه وتزكية ذاته واحتقار غيره ، وكلا الصنفين لا يرى نفسه مطالباً بحق لوالديه ولا لذوي قرباه ، ولا لليتيم ولا للمسكين ، ولا للجار قريباً أم بعيداً ، ولا لابن سبيل ولا لعبد ولا لأمة — والعياذ بالله — قد فُتن بنفسه ، وسُحِر في حسه فلا يرجى منه بر ولا احسان . وقد أكدت الآية في ختامها ، أن التارك لهذه الوصايا العشر ، وهو المختال الفخور ، بغيض من الله ، مطرود عن رحمته .

وأول الوصايا التي انتظمتها الآية ، بل رأسها وعمادها ، الأمرُ بعبادة الله وحده والعبادة هي أقصى مراتب الخضوع والطاعة ، وهي الخشوع لسلطان الله تعالى في السر والجهر . وان النية الصالحة ، والعزم الخيِّر ، لتجعل من الاعمال المعتادة — عبادات وقربات — فالزارع والتاجر والصانع ، اذا ما كان الباعثُ لهم على عملهم قوتَ أهليهم ، ورعاية ذويهم ، ثم الافاضة بما زاد على الفقراء والمساكين والجيران والمخالطين لهم ، ثم المساهمة في أعمال البر ، والمصالح العامة ،

إن الزراعة والتجارة والصناعة وما إلى ذلك تصير بهذه النيات الصالحات ، من أفضل العبادات وأبر القربات .

وبعدَ الامر بعبادة الله نهى سبحانه وتعالى العباد عن ان يشوب عبادَتهم وخضوعهم شوْب من إشراك ، أيّ إشراك ، لأي شيء ، وفي كلمة ( ولاتشركوا به شيئاً ) بهذا التنكير والتعبير اشارةٌ بليغة الى أن شيئاً من الكائنات ، لا يصح في العقول أن يتسامى او يقربَ من المعبود الواحد القهار ، فكيف يشترك معه في أن يُعبد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذكرت الآية بعد هذا ان الله يطلب الإحسان والبر والوفاء الى اصناف من الناس ، يتكون منهم البيت والأسرة والبيئة والجماعة ، وذلك لكي تتوثقَ الروابط ، وتصانَ المودات ، وتُرعى وشائج القربى ، ويسلمَ المجتمع من الآفات الاجتماعية .

واذا كانت الآية الكريمة ، قد بدأت آمرةً بعبادة الله وحده ، وإنها لعماد الدين ، ومنار الرشد ، فإن ما بعدها من وصايا قد ناله شرفُ هذا الاقتران ، فعظم شأنه ، وجلّ خطره . وما ظنك بأمور يطلبها الله تعالى ، ويقرنها الى الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، لا جرم ان التفريط فيها ، والتهاونَ بها ، فيه شر مستطير ، وفيه فساد في الارض . أليس ترك الاحسان الى الوالدين ، والى ذوي القربى والى اليتامى الذين فقدوا رُعاتَهم وحُماتَهم ، والى المساكين الذين يوشك الحقد ان يدفعهم الى الطغيان والعدوان ، وترك الاحسان والوفاء ، الى الجار ، والى المستجير — أليس ذلك كله ، إضعافاً لنظام البيوت ، وفصماً لعرى الجماعات ، وانما تتألف الأمم من بيوتٍ ومن جماعات .

طلبت الآية الاحسان في المعاملة بالوالدين ، وبذوي القربى واليتامى ، والمساكين

وابن السبيل – وهو المسافر والضيف الذي يحل برحابك ، كأنما السبيلُ أو أو الطريق هو أبوه وأمه واهله – وكذلك طلبت الآية الاحسان بالجار . وان الاحسان في المعاملة ، يعرفه كل أحد ، ومداره على ان تكون النفس نقيةً طاهرة، تفعل الخير راغبةً لا كارهة . فربّ محسن يبذل ويعطي ويمنح،ولكنه يفعل ذلك، وهو عابس كاره مقطّب الجبين.ولهذا قد ختم الله وصيته بالاحسان للوالدين بقوله ( ربكم اعلم بما في نفوسكم ) وصدق القائل ( ولكن على ما في القلوب المعول ) .

والآية لم تذكر الجار وتدْعه من غير تعريف وبيان،بل ذكرته وحددت وصفه، وقسمت أنواعه اهتماماً وقصداً الى ان يعرف المحسنُ بالجار كيف يضع إحسانه ، وكيف ينجو من وعيد الله ، اذا هو فرط في حق الجار ، أو اهمل الوفاء للجوار .

فالجار ذو القربى – هو الذي يجاورك مكاناً ، ثم هو ايضاً قريب منك نسباً وقرابةً . أما الجار الجنب ، فهو الذي يجاورك في المحلة ، ولكن داره ليست لِصقاً بدارك، أو هو من يجاورك داراً،ولكنه اجنبي عنك نسباً وقرابة أو اجنبيٌّ عنك ديناً ، فالجار غيرُ المسلم له حق الوفاء بالجوار ، وله حق الاحسان به . ولقد ثبت في الحديث الصحيح أنه عليه السلام كان يعود ولداً مريضاً لجاره اليهودي .

اما الصاحب بالجنب ، فهو الذي يصحبك في سفر ، أو هو الملازم لك ، المنقطعُ عندك يرجو نفعك ورفدك ، او هو الذي عرفته وصحبته ولو وقتاً قصيراً ، فهو يمشي الى جانبك ليستشيرك ويستعينك ويرى بعضهم ان الصاحب بالجنب – هو الزوجةُ التي قضى نظامُ الانسانية والفطرة ، أن تكون الى جانب زوجها ، فإحسان الزوج بزوجته مطلوب منه ، واحسان الزوجة بزوجها مطلوب منها .

هذه هي أصناف الجوار ، استقصتها الآية ، وفصّلتها وأوسعتها وصفاً ودقة ، وما ذلك الا إيذاناً بحق الجوار وبأن يتحرى الانسانُ معه الوفاء والإحسان.

ولقد اختير في نظام الآية ، ان يعبر – بالباء – دون اللام ، فيقال: (وبالوالدين احساناً) دون (وللوالدين احساناً) وكذلك ما عُطف على الوالدين ، أي واحسنوا بذي القربى وباليتامى وبالمساكين وبالجار ذي القربى – اختير في كل ذلك تخصيصُ الباء بالمحسَن اليه دون اللام ، ذلك ان الباء هنا تتضمن معنى التعطف بإلصاق الاحسان بمن يوجَّه اليه ، وتُشعِر أيضاً بالصلة بين المحسِن والمحسَن اليه وأنه لا فرق بينهما اما التعدية باللام ، فتُشعِر بأن هناك طرفين متباعدين ، وان الإحسان ينتقل من احدهما للآخر . وهذا ضرب من البيان القرآني يُلقي في النفوس أن احسان المحسن بهذه الاصناف من الناس ، ومنها الجوار ، هو في الواقع راجع لنفس المحسن ، لاصق بذاته . فالمحسن منتفع بإحسانه ، مستفيد بوفائه ، تزكيةً لنفسه ، وإسعاداً لجنسه .

وحقُ الجار ، والوفاءُ له كما عني به في هذه الوصايا العشر من القرآن ، قد عنى به الهدي المحمدي ، فحث عليه وبينه ، ووكده ، ودعا اليه ، يروي أبو هريرة رضي الله عنه ، ان رسول الله ﷺ ، قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم جاره ، قالوا: يا رسول الله ، وما حق الجار على الجار ، قال : ان سألك فأعطه ، وان استعانك فأعنه ، وان استقرضك فأقرضه ، وان دعاك فأجبه ، وان مرض فعده ، وان مات فشيعه ، وان اصابته مصيبة فعزّه ، ولا تؤذه بقتار قدرك – رائحة الطعام والشواء – الا ان تغرف له منها ، ولا ترفع عليه البناء لتسُد عليه الريح ) .

والوفاء للجار من طبائع الأمة العربية ، وقد امتدحه الإسلام ، وعظّم أمره. وان احدهم ليأتيه العائذ ، مستجيراً به ، ويقول ( انا جارك – انا في جوارك ) فتحِق له حرمة وصيانة وحماية كما تُحمى الحرمات ، وكما يناضل الانسان عن

حياته وعن عرضه .

ولقدفزعتْ الى النبي ﷺ يوم فتح مكة أمُّ هانىء ـ فاختة بنت أبي طالب ـ وقالت: يا رسول الله ان اخي علي بن ابي طالب يتهـــدد زوجي بالقتل، وقد أجرته ، فقال ﷺ : ( قد اجرنا من أجرتِ يا أم هانىء ) فما أوفى الإسلام للجار ، وما اعزّ الجوار وأكرمَه في كنف المسلمين .

إن رعاية الجوار ، والوفاء للجار من التراث الإسلامي الذي يتلقاه السلفُ عن الخلف بأمانة وصدق ، يحرص عليها كل مسلم ، ويحاذر ان يفرط فيها . فهذا أبو حنيفة فقيهُ المسلمين وكبير أئمتهم ، كان له جار بالكوفة يغني في غرفته ، ويستمعُ أبو حنيفة الى غنائـــه فيعجبه ، ويأنسُ به ، وكان كثيراً ما يتغنى بقوله :

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليوم كريهـة وسداد ثغر

فلقيه رجال الشرطة ليلة فأخذوه وحبسوه . فتفقده أبو حنيفة ، واخـــذ يبحث عنه ، فأخبروه بما انتهى اليه امرهِ ، فـدعا بثيابه الرسمية ، وركب الى عيسى بن موسى، فقال له: ان لي جاراً أخذه عَسَسُك البارحة فحبسوه ومـــا علمت منه الا خيراً ، فقال عيسى :— سلِّموا الى ابي حنيفة كلَّ من اخذه العسسُ أمس . فأطلقوا جميعاً، فلما خرج الفتى، دعا به ابو حنيفة ، وقال له سراً : ألست كنت تغني يا فتى كل ليلة ( أضاعوني وأي فتى اضاعوا ) فهل أضعناك ؟ قال . لا والله ، ولكن احسنت وتكرمت ، أحسن الله جزاءك . قـال له : فعد الى ما كنت تغنيه ، فاني آنس به ، ولم أر به بأساً. قال : أفعل .

اذا عظم الوفاء للجار وعظمت رعاية الجوار ، فقد عظم الوفاء للأمـــة ، وعظم البرُّ بها والاحسان إليها فليس الجار مع الجار، الا جمعية صغيرة ، وخليةً

واحدةً ، ومنها تتكون الأمـــة كلُّها ، وان رحمة الله لتتـدارك الامم في محنتها وشدتها بفضل المحسنين فيها ، والأوفياء لها . اولئك الذين عطفت قلوبهم وشيجة الاسلام ، ورابطـة الوطن ، فنزع الله من قلوبهم الوهن ، وشفاها من الاحقاد والغِل ( إن رحمة الله قريب من المحسنين ) .

# فهرست


| | |
|---|---|
| كتاب كريم من شيخ الجامع الازهر | ٦ |
| خطاب بارع من وزير الاوقاف | ٧ |
| كتاب عزيز من شيخ كلية أصول الدين | ٩ |
| كلمة بنت الشاطىء | ١١ |
| فاتحة وتعريف | ١٣ |
| جوامع الكلم النبوية | ١٥ |
| خطبة جامعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم | ١٩ |
| معنى الحرية الشخصية | ٢٣ |
| رسول الله ﷺ يبين اسباب ضعف الامم وانحلالها | ٢٦ |
| الحج مصحة روحية | ٢٩ |
| من وحي الحج ومن إلهام الزيارة ـ ١ ـ | ٣٦ |
| « « « « « « ـ ٢ ـ | ٤٢ |
| « « « « « « ـ ٣ ـ | ٤٨ |
| « « « « « « ـ ٤ ـ | ٥٤ |
| « « « « « « ـ ٥ ـ | ٦٠ |
| اكرام اليتيم ومصارف الزكاة | ٧ |
| حق المجتمع وحق الفرد في الاسلام | |

| | |
|---|---|
| عدل الله نافذ في الافراد والامم | ٨٢ |
| القضاء والقـدر | ٨٦ |
| القرآن الكريم يقرر العدالة الاجتماعية | ٩١ |
| العدل | ٩٧ |
| العيد الاكبر للمسلمين | ١٠٣ |
| الله اكبر | ١٠٧ |
| الشكر يديم النعمة والكفر يذهبها | ١١٢ |
| الطهور شطر الايمان ح . ش . | ١١٥ |
| الفرقة والشتات خروج من قيود الإسلام | ١١٩ |
| واجب البيت | ١٢٢ |
| « من حلف لا يفعلُ الخير والمعروف فهو آثم » ح.ش | ١٢٥ |
| الحجر الصحي تشريع إسلامي | ١٢٨ |
| طهارة المجتمع ووحدة الكلمة | ١٣١ |
| عدل الإنسان مع نفسه | ١٣٦ |
| ما هي افضل الاعمال ؟ | ١٣٩ |
| ليلة النصف من شعبان | ١٤٣ |
| الايمان الحق ، ثمرته الجهاد | ١٤٧ |
| حقوق الجوار | ١٥٠ |


٦٦١ — ٥ — ٦٤

ليس مؤلف هذه السلسلات والحلقات بغريب على القراء، وليس صوته ببعيد على الأسماع فطالما أرسل من منبر الإذاعة المصرية روائع الأبحاث والأحاديث الدينية والأدبية، وأوضح الحلول لمشكلات المجتمع على أساس سليم من الدين والعقل.

ولقد كان صوته يدوي كل صباح ومساء، ونبراته في الأداء تأخذ بمجامع القلوب وتهز الأحاسيس، وتحدث تجاوبًا بعيد المدى في أنحاء العالم الإسلامي، حتى لقد أكبر صنيع المؤلف وإنتاجه المثمر، أشياخ العلماء، وكبار المفكرين - لهذا - رأينا أن نخرج هذا الانتاج من التراث الإسلامي، في سلسلات وحلقات تيسيرًا وحرصًا على تعميم النفع، وعرضًا سليمًا للثقافة الإسلامية، التي تهفو إليها نفوس المسلمين.

الثمن: ٢٠٠ ق. ل.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036759112